الدولة العباسية في كتابات المستشرقين

إعداد

د.سعد بن دبيجان بن ضبعان الشمري

مشرف تربوى بوزارة التعليم بالمملكة العربية السعودية

- **مقدمة :**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد.

فمنذ بزوغ فجر الرسالة وارتفاع شمس حضارة هذه الأمة الخاتمة والشاهدة على بقية الأمم، وهذه الأمة تنير الأرض علماً ومعرفة وهداية انتفعت لها البشرية جمعاء. فمبعث النبي صلى الله عليه وسلم شكل بزوغ هذا الفجر. ولازال نور هديه يرتفع وينتشر حتى ارتفع شمس الحضارة الإسلامية في أمته من بعده، مهتدية بهديه ومستنة بسنته.

ومن المراحل المهمة في حضارة هذه الأمة مرحلة الدولة العباسية والتي كانت فيها الأمة في أوج عصرها من الناحية العلمية والمعرفية في العلوم الإنسانية والطبيعية، ولهذا كانت مجالاً خصباً للدراسات الاستشراقية والتي تناولتها بعدة دراسات مطولة ومختصرة، جماعية وفردية، وهذه الدراسات والكتابات هي ما سنعرض لنماذج منها في هذه الدراسة والتي حملت عنوان: كتابات المستشرقين عن الدولة العباسية.

- **أهمية الموضوع:**

1. للدولة العباسية أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي لكونها أحدى كبريات الدول الإسلامية من ناحيتي الزمان والمكان.
2. أهمية الدور الذي قامت به الحضارة الإسلامية في نشر العلم والمعرفة وأثرها على الحضارات الأخرى.
3. كثرة كتابات المستشرقين عن الدولة العباسية ، والتي شملت عدة مجالات مهمة :(قيام الدولة، الخلفاء، العلماء، الحركة العلمية)

- **أهداف الموضوع:**

1. حصر كتابات المستشرقين عن الدولة العباسية في مجالات: قيام الدولة، والخلفاء، والعلماء، والحركة العلمية)
2. تحليل ما كتبه المستشرقون وربطه بمرجعياتهم الفكرية.
3. بيان وجه الإنصاف ووجه الزيف والبغي فيما كتبه المستشرقون.

وقد قسمته لعدة مباحث هي:

- مقدمة.
- تمهيد .
  - تعريف الاستشراق.
  - مناهج المستشرقين في دراسة التاريخ الإسلامي.
- المبحث الأول : كتابات المستشرقين عن قيام الدولة العباسية .
- المبحث الثاني : كتابات المستشرقين عن الخلفاء العباسيين .
- المبحث الثالث : كتابات المستشرقين عن العلماء في الدولة العباسية.
- المبحث الثالث: كتابات المستشرقين عن الحركة العلمية في الدولة العباسية.
- الخاتمة والنتائج.
- المراجع.
- الفهرس.

تمهيد :

- **المطلب الأول : تعريف الاستشراق :**

- **أولاً : الاشتقاق اللغوي :**

يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : " (شرق) الشين والراء والقاف أصل واحد يدل على إضاءة وفتح. من ذلك شرقت الشمس، إذا طلعت. وأشرقت، إذا أضاءت"[1]

وقال صاحب معجم اللغة المعاصر: " استشرقَ يستشرق، استشراقًا، فهو مُستشرِق، واستشرق الأوربيُّ: اهتمَّ بالشرق والدراسات الشرقيَّة "[2]

- **ثانياً : الاستعمال الاصطلاحي:**

تعددت تعريفات الباحثين في الاستشراق لهذا المجال كل بحسب رؤيته وبحسب الزاوية التالي يعتقد أن الاستشراق يركز عليها، ولخص هذه التعريفات الباحث أحمد غراب في كتابه رؤية إسلامية للاستشراق وحصرها في ثلاث تعريفات وهي:

1. تعريف عام : " أسلوب فكري غربي يقوم على أن هناك اختلافاً جذرياً في الوجود والمعرفة بين الغرب والشرق، وأن الأول يتميز بالتفوق العنصري والثقافي على الثاني"[3].

وهذا التعريف مع عمومه إلا أنه يركز على النزعة العنصرية للاستشراق، ويبين من خلاله أن النزعة العنصرية هي أساس بني عليه الاستشراق ومنه انطلق.

2. تعريف خاص : " الاستشراف دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من الدول الاستعمارية للشرق بشتى جوانبه: تاريخه وثقافته، وأديانه ولغاته، ونظمه الاجتماعية والسياسية، وثرواته، وإمكانياته، من منطلق التفوق العنصري، والثقافي على الشرق، ويهدف إلى السيطرة عليه لمصلحة الغرب، وتبرير هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعلمية والموضوعية".[4]

وهذا التعريف تفصيلي يبين في ثناياه أهداف الاستشراق، ووسائله التي استخدمها في الوصول لأهدافه.

3. أشمل تعريف للاستشراق يضمن جميع أنواع الاستشراق القديمة والحديثة تعريف أحمد غراب وهو قوله : " الاستشراق هو دراسات أكاديمية، يقوم بها غربيون من الدول الاستعمارية، للشرق

[1] معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ص (264/3)
[2] معجم اللغة المعاصر، أحمد عمر، ص (1192/2)
[3] رؤية إسلامية للاستشراق ، أحمد غراب، ص(5)
[4] المرجع السابق ص(6)

بشتى جوانبه: تاريخه وثقافاته، وأديانه، ولغاته، ونظمه الاجتماعية والسياسية، وثرواته، وإمكاناته من منطلق التفوق العنصري والثقافي على الشرق، وبهدف السيطرة عليه لمصلحة الغرب، وتسويغ هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعلمية والموضوعية"[1]

وما قام به أحمد غراب في هذا التعريف هو التقاطُه أفضل ما في التعريفات السابقة ونظمها في تعريف واحد يبين من خلاله مفهوم الاستشراق وأهدافه ووسائله وهويته الحقيقية.

- **المطلب الثاني : منهج المستشرقين في تناول التاريخ الإسلامي .**

من خلال الاطلاع على كتابات المستشرقين في التاريخ الإسلامي يتبين جلياً منهجيتهم الواضحة في التعامل مع التاريخ الإسلامي. وألخصها في نقطتين مهمتين، هما :

1. عدم دراسة التاريخ من مصادره الأصلية ، والاعتماد على مصادر غير أصلية للتاريخ الإسلامي، ليجدوا فيها بغيتهم المنشودة، وينتقون منها ما يتوافق مع أحكامهم المسبقة، وتصوراتهم العنصرية عن المسلمين. ومن ذلك جعلهم كتاب مثل ألف ليلة وليلة ، وأغاني أبي الفرج الأصفهاني، مرجعاً في نقل الحوادث والأخبار وتقويم الشخصيات، فقد احتفي بهما حفاوة كبيرة في دائرة المعارف الإسلامية، فما يترجمون لشخصية لها ذكر في أحد الكتابين إلا وجعلوا الكتابين من أول المصادر في التعرف المترجم له، والحكم عليه من خلالهما، [2].

ومن ذلك ما قام به المستشرق روم لاندو فهو يستشهد كذلك بكتاب ألف وليلة لوصف العصر العباسي فيقول :" لقد نزل العبيد والجواري بالمئات قصوراً فخمة، وأشبعوا كل نزوات الخليفة، ولقد كانت حياة البلاط غنية زاخرة بمشاهد رائعة صورت فيما بعد في حكايات ألف ليلة وليلة**!**"[3].

وألف ليلة وليلة كتاب ساقط من الناحية التاريخية، فهو كتاب لا يعرف مؤلفه ولغته الشعوبية المحتقرة للعرب غالبة عليه، فكيف يكون مثل هذا الكتاب مرجعاً يعتمد عليه وهو لا يعدو إلا أن يكون أحد كتب الأساطير الشعبية.

2. المنهجية الثانية التي اتبعها المستشرقون هي ، دراسة التاريخ الإسلامي بعقلية أوربية ، وبخلفية التاريخ الأوربي، وممارسة إسقاطاته على التاريخ الإسلامي بطريقة غير علمية،

[1] رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب، ص7

[2] دائرة المعارف 175/1

[3] الإسلام والعرب، روم لاندو (80)

ومن ذلك قول المستشرق الروسي ي.أ.بلياييف[1] : " وكانت ثورة الجماهير، العاملة احتجاجاً على استغلال الإقطاعيين تتخذ انتفاضات محلية، لم يكن من العسير على جنود الدولة من المرتزقة قمعها"[2] ، فيتضح من هذا النص حضور التفسير الماركسي المادي للتاريخ، فحضور صراع الطبقات العاملة الكادحة، والطبقة الاستقراطية الإقطاعية حاضر من خلال هذا التفسير، وهذا يؤكد أن المستشرقين ينطلقون في تفسيراتهم للتاريخ من عقائدهم وأيدلوجياتهم التي يعتنقونها ويؤمنون بها، ولا شك أن مثل هذا التفسير سيخرج بنتائج غير دقيقة للتاريخ المدروس، من ناحية التفسير والوصف، ومن ناحية التحليل والاستنتاج، فالمعطيات التي أثرت على أحداث التاريخ الإسلامي تختلف عن معطيات ومؤثرات التاريخ الأوربي.

وهاتان المنهجيتان سيتضحان من خلال عرض وتحليل الكتابات الاستشراقية عن الدولة العباسية في مباحث الدراسة.

المبحث الأول

كتاباتهم حول تفسير قيام الدولة العباسية.

المطلب الأول: عرض تفسيرات المستشرقين:

من المواضيع التي كثر فيها كلام المستشرقين هو موضوع قيام الدول العباسية، والتفسيرات التاريخية لقيامها، والتي أظهرت الجوانب المرجعية لتفسيرات المستشرقين ،فلكل منهجية في تفسير التاريخ مرجعيات فكرية ينطلق منها في تفسيره للتاريخ والأحداث، ومن الأخطاء الفادحة التي وقع فيها المستشرقون أنهم انطلقوا من مرجعياتهم هم في تفسير التاريخ الإسلامي، وبالتالي فقد خرجوا بنتائج غريبة لا تمت للتاريخ الإسلامي بصلة، وجعلوها منطلقاً لفهم الإسلام، والأدهى من ذلك أن يتلقفها المثقفون المستغربون العرب ثم يعيدوا تسويقها على العالم الإسلامي بأقلام عربية وهويات إسلامية.

فمن أشهر هذه التفسيرات التفسير المادي للتاريخ الإسلامي وحضور صراع الطبقات في تفسير حادثة نشوء الدعوة العباسية وسقوط الدولة الأمية، فقد تردد هذا التفسير وتلكم الإسقاطات على ألسنة عدد من المستشرقين ، وملئت الكثير من دراساتهم بهذا النتاج، وخرجوا بسبب هذه المنهجية بعدة تفسيرات وهي :

[1] مستشرق روسي، عضو معهد الشعوب العربيةالسوفياتية، وهو كاتب ومؤلف بارز، وضع عدة أبحاث ومقالات ومؤلفات في تاريخ العرب، انظر كتابه العرب والإسلام(الغلاف)

[2]العرب والإسلام، ى أ بلياييف 226

■ **أولاً : تفسير قيام الدعوة العباسية بأنها ثورة فارسية ضد الدولة العربية**، وأن سوء أحوال الموالي والعجم من غير المسلمين من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هو الذي دفعهم للانضمام للثورة، وأنها ثورة بين العرب وبين السكان الأصليين الإيرانيين ! وممن تبنى هذا التفسير فان فولتن[1] وولهاوزن[2]وغيرهم كثير ، فهذا هاملتون جب يقول مفسراً سبب الثورة على الأمويين : " وكانت أعظم مشكلة واجهت الأمويين هي التنسيق بين البناء الاجتماعي للدولة العربية، حسبما نظمت أعقاب الفتوحات، وبين الاقتصاد الزراعي في الولايات المفتوحة، ثم تحقيق ذلك التنسيق بطريقة تتفق والمبادئ الخلقية في الإسلام، وزادت حدة المشكلة بخاصة عندما أقبل على اعتناق الإسلام كثير من الملاك والفلاحين، وظل يرهقهم مع ذلك ما كان يرهقهم في الماضي من حيف اجتماعي واقتصادي ، ... حتى لم يعد في الإمكان كبح الشعور المتزايد بالتظلم من الحكم الأموي .[3]

ويكرر ذلك جون باجوت جلوب مفسراً تعاون الفرس مع الثورة العباسية : " بل كانوا يضمون عدداً كبيراً من المتحولين إلى الإسلام ، والذين كانوا يألمون أشد الألم لما يلقونه من زراية الارستقراطيين العرب"[4]

ويبالغ بعض المستشرقين في الجزم بنهاية الدولة العربية وقيام الدولة الفارسية، أو الدولة الإسلامية في بعض التعبيرات، فيقول المسترق روم لا ندو : " واختيرت الكوفة على التخوم الفارسية عاصمة للدولة الجديدة، ونزع توجه الدولة كله إلى الانحراف على نحو لا مفر منه نحو فارس !، لقد شكل الفرس حرس الخليفة الملكي، واحتل الفرس مناصب حكومية رئيسية، وكان سقوط الأمويين إيذاناً بانقضاء العهد العربي في تاريخ الإسلام!.[5]، وكأن الدولة العباسية ليست دولة عربية!

ويقول ولهاوزن[6] مؤكداً أن سقوط الدولة الأموية هو سقوط للدولة العربية ويصف حال العرب بعد سقوط الدولة الأموية بقوله : "وانقضى في الوقت نفسه حكم العرب انقضاءً حاسماً ، وكان

---

[1] فانفولتن ولد عام(1866-1903م) وأبرز مؤلفاته العباسيون وخراسان، والفتح العربي،وبعض العقائد في عصر الأمويين، ونشر العديد من المخطوطات الإسلامية كمفاتيح العلوم للخوارزمي، انظر المستشرقون للعقيقي ص(663/2)

[2] الثورة العباسية، فاروق عمر (13)، وكتاب الدولة العربية وسقوطها، لولهازن ص (389)

[3] دراسات في حضارة الإسلام، هملتون جب ص12

[4] امبراطورية العرب،جوب باجوب جلوب(406)

[5] الإسلام والعرب، روم لاندو (74)

[6] فللوزن أو ولهازن أو فلهازن (1844-1918م) بدأ دراسته في اللاهوت في نقد التوراة، ثم تخرج باللغات الشرقية على إيفالد في جوتنجين، فعد من أشهر تلاميذه وخلفه فيها، زأبرز مؤلفاته التمهيد للتاريخ الإسلامي في ستة أجزاء، وديوان الهذليين، وغيرها كثير. انظر المستشرقون للعقيقي ص (714/2)

سند هذا الحكم الأمويين وأهل الشام، وإذا بموطن العرب القومي يصبح قافراً موحشاً، حتى غدا الحج غير آمن! . ولم تعد القبائل العربية إطاراً لحكم الله!، بل فقدت مزاياها فقداً تاماً ".[1]

ويكرر ذلك برنارد لويس[2] فيقول : " وبذلك ذهب البيت الأموي وذهبت الدولة العربية"![3]

ويقول بروكلمان[4] : " وبسقوط الأمويين خسر العرب عموماً، لا السوريون وحدهم، السيادة المطلقة في الإسلام. فما هي إلا فترة وجيزة حتى ارتدت جزيرتهم إلى سابق عهدها من التأخر الكلي".[5]

وغالب هذه التفسيرات مبعثها استصحاب الواقع الأوربي في ألمانيا في القرن التاسع عشر، واستصحاب تاريخ الثورات الأوربية، سواء كانت الثورة الفرنسية، الثورة على الإقطاع والكنيسة أو الثورة الروسية على البرجوازيين، متناسين ومتجاهلين أن أغلب دعاة العباسيين هم من العرب، وأغلب القبائل المساندة للعباسية هي القبائل العربية سواءً كانت في الحجاز أو في خرسان، ويدل على ذلك مآل الثورة العباسية فهي في حقيقتها وبعيداً عن تفسيرات وسيناريوهات المستشرقين حاضنة للمسلمين عموماً عربهم وعجمهم، حتى أن الدولة كانت للعرب بالدرجة الأولى فهم الخلفاء وهم الوزراء، ولو كانت الدولة قامت لهدف غير ذلك لما استمرت بتخلف أهداف قيامها .

ويدل على مشاركة العرب وأنهم هم قادة الثورة العباسية ما ذكره المؤرخ ابن الأثير حينما عد أول النقباء الذين كانوا يدعون للرضا من آل محمد في سنة مائة للهجرة قوله : " ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي، فدفعوها إلى ميسرة، فبعث بها ميسرة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلا نقباء، منهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم مولى آل أبي معيط، ومالك بن الهيثم

---

[1] الدولة العربية وسقوطها،ولهاوزن ص(441)

[2] برنارد لويس مستشرق بريطاني ولد عام (1916م) تخرج من جامعتي لندن وباريس وعين معيداً للتاريخ الإسلامي في جامعة لندن، والتحق بوزارة الخارجية، أبرز آثاره أصول الإسماعيلة،وتركيا اليوم. انظر المستشرقون للعقيقي ص (561)

[3] العرب في التاريخ، برنارد لويس ص (112)

[4] كارل بروكلمان(1868-1956) ولد في روستوك وتخرج باللغات السامية على كبار المستشرقين مثل نولدكه، ونبغ فيها وطارت شهرته في فقه العربية وقراءتها قراءة فصيحة، وكتابتها كتابة سليمة، عمل في العديد من الجامعات الأوربية والعربية، وأبرز مؤافاته تاريخ الشعوب الإسلامية، وتاريخ الأدب العربي. انظر المستشرقون للعقيق للعقيقي (777/2)

[5] تاريخ الشعوب العربية، بروكلمان، ص(171)

الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى خزاعة، وشبل بن طهمان أبو علي الهروي مولى لبني حنيفة، وعيسى بن أعين مولى خزاعة، واختار سبعين رجلا، وكتب إليهم محمد بن علي كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها".[1]

وعند النظر إلى أسماء القبائل التي ينتمي إليها النقباء يتبين فعلاً أن العرب لم يكونوا بمعزل عن التأسيس للثورة العباسية، بل هم أول النقباء الداعين إليها.

- **ثانياً: تفسير قيام الدولة العباسية من خلال نظرية بصراع الطبقات،** وهذا التفسير نتيجة لتأثير الواقع الذي يعيشه المستشرق وانتماؤه الفكري يظهر جلياً من خلال تفسيره لتاريخ قيام الدولة العباسية ، ومن ذلك قول المستشرق الروسي ي.أ.بيلياف في كتابه العرب والإسلام في تفسيره للثورة على الأمويين : " وكان سبب سقوط حكم الأمويين التذمر الشديد الذي ملأ صدور الجماهير العاملة"[2] ، ويلاحظ النفس الشيوعي بين ثنايا هذا التفسير وحضور الصراع بين الطبقة العاملة والطبقات الأرستقراطية بسبب انتماء المستشرق للمدرسة الروسية الشيوعية.

ويدل دلالة واضحة على بطلان هذا التفسير أن الموالي بقوا موالي بعد قيام الدولة العباسية، والفلاحين بقوا كما هم، والعبيد والأرقاء لم تحررهم الدولة العباسية، ولم يحرروا أنفسهم بعد قيامهم، إذاً فقد كان هذا التفسير لا يستند إلى أي سند تاريخي، فالمبررات التي بنى عليها المستشرقون تفسيرهم لمشاركة العبيد والفلاحين لم يتغير فيها شيء بعد قيام الدولة العباسية.

- **ثالثاً: الدعم التركي من بلاد ما وراء النهر،** وملخصه أن الترك في بلاد ما وراء النهر هم من ساند وسبب الثورة العباسية ، لكونهم دعموا أكثر من ثورة تمرد سابقة، كحركة الحارث بن سريج المرجئ، وممن تبنى هذا الرأي المستشرقان فاميري وسيار[3]

وهذا التفسير يدل دلالة قاطعة على التفسيرات الخيالية الروائية التي يرسمها خيال بعض المستشرقين حتى كانه يكتب رواية أو قصة خيالية، فليس لما يذكره فاميري وصاحبه سيار أي مستند تاريخي ولو ضعيف !، وهم يعتمدون في هذا التفسير على المنهج الاسترادادي والذي يتلخص في سد ثغرات التاريخ الذي يسببه نقص المعلومات بتوقع خيالي لرسم الرواية الكاملة،

[11] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ص (108/4)
[2] العرب والإسلام، ى أ يلياليف (251)
[3] الثورة العباسية، فاروق عمر (14)

وهذا المنهج صالح في باب الروايات والحكايات والقصص، ولكنه بعيد عن المجالي التاريخي الذي يعتمد على المعلومة، وينتهي عندها في مجال الوصف والعرض .

- **رابعاً: التركيز على مظلومية الداخلين في الإسلام من غير العرب** وهذا التفسير من أكثر ما دندن حوله المستشرقون ، وركزوا على استغلال المسلمين لهم عن طريق الجزية ، والادعاء أن كل ما وعد به الداخلون في الإسلام ما هي إلا وعود زائفة ليس لها رصيد من الواقع ، مما أدى إلى اندلاع ثورة المسلمين الجدد والانضمام للدولة الجديدة نكاية بمن دخلوا في الإسلام على يديهم وبسبب فتوحاتهم ، يقول فيليب حتى[1] ورفاقه : " وسبب ذلك نقمة المسلمين غير العرب بوجه عام ، والمسلمين الفرس بوجه خاص، وذلك بسبب ما لاقوه من سوء المعاملة على يد المسلمين العرب، فقد كانت تلك المعاملة أبعد شيء عن المساوات التي وعد بها الداخلون في الإسلام"[2]

ويكفي مناقشة هذه الفرضية التفسيرية عدم ذكر ما يسندها تاريخياً، ومن ذلك خلو الشعارات المرفوعة في الثورة على الأمويين من هذا الادعاء، إذ لو كان هذا الادعاء صحيحاً لكان ظاهراً في شعارات الثائرين وأدبياتهم، ولو بطريقة غير مباشرة، ولكن التاريخ يبين عكس ذلك فلم يرصد التاريخ الإسلامي أي نوع من هذه الشعارات .

[1] فيليب حتى مستشرق من أصول لبنانية وجنسية أمريكية تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروتونال الدكتوراة من جامعة كولومبيا وعين معيداً في قسمها الشرقي، أبرز مؤلفاته أصول الدولة الإسلامية، وتاريخ العرب. انظر المستشرقون للعقيقي ص (1010/3)

[1] تاريخ العرب، فيليب حتى ،ص(468)

[2] تاريخ العرب سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتى(152/2)

المطلب الثاني : مناقشة تفسيرات المستشرقين :

ومن الغريب أن المستشرقين تركوا السبب الظاهر والقوي والمعلن والذي لا يحتاج إلى تكلف وتلفيق وتخيل، وهو أن العباسيين أقنعوا الناس أنهم أولى بالخلافة من الأمويين، فنسبهم وقربهم من النبي صلى الله عليه وسلم يقدمهم على الأمويين، وهذا هو موطن القوة في الدعوة العباسية، ولذا جعلوه شعاراً لهم، فحين يسأل دعاة العباسيين عن الخليفة كانوا يرددون " الرضا من آل محمد" [1]

كما يلاحظ على التفاسير السابقة اعتمادها على السبب الواحد لسقوط الدولة الأموية فقليل منهم من ذكر أكثر من سبب، مع أن القارئ للتاريخ يوقن أن الأحداث العظيمة لا تقع لسبب واحد بل لجملة من الأسباب المتظافرة، وهذا ما تداركه أصحاب المعجم التاريخي الإسلامي فقد ذكروا أسباب الانتصار العباسي في عدة عوامل هي : " إن هذا الانتصار العباسي والذي ربما بدى للبعض مدهشاً، يفسر من الناحية التاريخية بعدة عوامل : التنظيم الجيد لحركة سرية تعمل في منطقة بعيدة، والنضج البطيء للدعاوى المعادية للأمويين في محيط مستعد لتقبلها، وعدم توقف الغضب الشيعي، والصراع بين المجموعات القبلية العربية والتي يعتبر بعضها أن النظام جائر في حقه، والصعوبات العسكرية السياسية، والسياسية التي واجهها الخلفاء في دمشق، وأخيراً استياء الموالي في خراسان"[2]

ويؤكد ذلك قول المستشرق كلود كاهين[3] فيقول : " وأول عرض علمي للتاريخ الأموي هو الكتاب الشهير الذي أصدره المؤرخ الألماني ولهوزن في مطلع القرن الحالي، وأسماه" الإمبراطورية العربية وسقوطها". ومن بعده راح الباحثون يؤكدون العوامل القومية والاجتماعية التي كان لها أثرها في العهد الأموي ولم يغفلوا الحركات الدينية التي تصدى لها الأمويون، لكنهم لم يربطوا بين هذه العناصر جميعاً ربطاً عميقاً بعض الشيء فكانت الثورة العباسية"[4]

وحتى لا يظلم المستشرقون من ناحية التفسير المقنع في قيام الدولة العباسية، فقد وقفت على تفسير موضوعي لأحد المستشرقين وهو يكفي في الرد على جميع التفسيرات غير الموضوعية السابقة، وهو قول المستشرق جون باجوت جلوب : " ولما كنا نعيش اليوم في

[1] المرجع السابق (15)

[2] معجم الإسلام التاريخي،ج.د. سورديل ص(614)

[3] كلود كاهين مستشرق فرنسي المولود عام(1909م) تخرج من السربون ومردسة اللغات الشرقية، وعين محاضراً في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، أبرز مؤلفاته: المغول والجزيرة أوساط القرن الثالث عشر. انظر المسشرقون للعقيقي ص (323/1)

[4] تاريخ الشعوب الإسلامية، كلود كاهن ص(44)

عصر يعتقد أن الجنس البشري مقسم إلى عدد من الأجناس البشرية المختلفة لأننا نميل إلى تفسير حركات التاريخ على صعيد المفاهيم القومية، ولكن ليس من المحتمل أن يكون قادة الثورة العباسية قد فكروا على هذا النحو بأنفسهم، فلم تكن الحركة ثورة فارسية على العرب ، وكان معظم الذين اشتركوا فيها ، يفكرون ضمن الإطار الإسلامي لا ضمن الإطار القومي، وكان الفريقان وهما يسعيان لجمع الأنصار يزعمان العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولو كانت القومية القوة الدافعة للثورة، لكنا سمعنا عن نداءات توجه إلى الفرس للثورة على العرب، ولكن لم يرد في كتب التاريخ أي ذكر لمثل هذه الشعارات".[1]

ويقول أيضاً في الرد على التفسير القومي للثورة مثبتاً وجود العرب وبكثرة في فارس قبل قيام الثورة العباسية : " وكان زياد ابن أبيه قد أسكن في هذه الإمارة قبل خمس وسبعين سنة نحواً من خمسين ألف أسرة عربية، وقيل أنه في عصر الثورة كان عدد العرب في بلاد فارس يزيدون عن مائتي ألف عربي اندمجوا مع الفرس "[2]

أما لماذا تحولت العاصمة من الشام إلى العراق، وتفسير ذلك بكونه من أجل القرب من بلاد فارس، فهذا يكذبه أن العباسيين وقبلهم العلويين من أيام الخلفاء الراشدين، كان تواجدهم ونفوذهم وشعبيتهم وشيعتهم في العراق، من أيام الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فليس بجديد على آل البيت أن تكون لهم علاقات ونصرة وتأييد في العراق.

فيتبين لنا من خلال العرض السابق أن المستشرقين لم يكونوا على منهجية واحدة في قراءة التاريخ وتفسيره، ولم يكونوا بنفس المستوى في القدرة على التحليل والتفسير والإنصاف والموضوعية.

[1] إمبراطورية العرب،جون باجوت جلوب(417)
[2] المرجع السابق(421)

المبحث الثاني

كتاباتهم عن شخصيات الخلفاء .

الخلفاء العباسيين يعتبرون مادة خصبة للمواد الاستشراقية، فتجدهم يُنقصون من قدرهم، ويقللون من إنجازاتهم، ويعتمدون على كتب الأدب والقصص ، ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتب الشعوبيين، والمؤرخين الذين ينطلقون من عقائد تحكم قراءتهم للتاريخ وتوجه تفسيراتهم كالمسعودي وغيره، ويتجاهلون أسفار التاريخ الإسلامية القريبة من عهود الخلفاء، والزاخرة بحياتهم الحقيقية وسيرهم المشرفة، وإنجازاتهم التي شهد لها الشرق والغرب.

وقبل أن نتحدث عن كتاباتهم عن شخصيات الخلفاء وتقويمهم لهم، نبين أن الخلل في تصور مفهوم الخليفة عند المستشرقين قد أصابه خلل كبير، ومن ذلك قول المستشرق روم لاندو :" وبتأثير من الفرس حدث تغير في مفهوم الخلافة . لقد أصبح الخليفة حاكماً أوتوقراطياً على الطريقة الفارسية، بل قد نزع إلى أن يتخذ لنفسه صفات الله . وإذ لم يقنع باسم (خليفة رسول الله) فقد سمى نفسه بـ(خليفة الله)![1]

فيا ترى من هو الخليفة الذي سمى نفسه بخليفة الله، أو وصف نفسه بصفات الألوهية والربوبية!، وسبب هذا الخلط والله أعلم منشؤه من سببين :

1. الفهم الخاطئ لترجمة ألقاب الخلفاء المضافة إلى الله سبحانه على سبيل التعبد لله والتبرك به والاستعانة به، كالمعتصم بالله، والمتوكل على الله والواثق بالله، وغيرها مما اشتهر به الخلفاء العباسيون ومن تبعهم .
2. تكلف ربط الخلافة العباسية بالعقائد والحضارة الفارسية، بدون أي دليل تاريخي.

إن استقصاء وحصر كل ما كتبه المستشرقون عن الخلفاء العباسيين من الصعوبة بمكان لسببين مهمين :

1. كثرة الخلفاء العباسيين، فقد بلغ عددهم سبع وثلاثون خليفة أولهم أبو العباس السفاح، وآخرهم الخليفة المستعصم بالله.
2. كثرة من كتب عنهم من المستشرقين، في دراسات مفردة، أو ضمن موساعاتهم العلمية وأشهرها دائرة المعارف الإسلامية، ومن سأذكرهم من الخلفاء في هذا المبحث هم عينة تمثيلية تبين منهجيات المستشرقين في التعامل مع الخلفاء العباسيين، وحسب اطلاعي

[1] الإسلام والعرب،روم لاند ص(76)

القاصر على ما كتبه المستشرقون عن الخلفاء العباسيين، تبين لي أنهم على قسمين، قسم مارس التشويه، والتزييف، سواء كان بقصد أو بغير قصد بسبب نوعية مصادره التي يعتمد عليها، وقسم تكلم عن الخلفاء بموضوعية وأمانة علمية:

- **المطلب الأول : الكتابات الموضوعية عن الخلفاء العباسيين.**

غالب كتابات المستشرقين هي مجرد نقل من كتب التاريخ الإسلامي، خصوصاً في الموسوعات الكبرى، وغالبها كتابات موضوعية وهي عبارة عن ترجمات مختصرة نقلت من كتب التاريخ، وهي الأعم الأغلب ولم أفصل فيها وأكثر من أمثلتها لأن هذا هو الأصل الذي يجب أن يكون عليه البحث العلمي، النقل بأمانة، ومطابقة الترجمة للنصوص المترجمة، ولا بأس بذكر بعض الأمثلة التي تبين هذا النمط من كتابات المستشرقين:

1. يقول ولتر بايتون[1] في كتابه أحمد بن حنبل : " وسيلقي هذا البحث ضوءً جديداً على أخلاق الخلفاء العباسيين الأربعة : المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . وقد ينتهي بنا هذا إلى تغيير حكمنا عن المأمون والمتوكل.. إذ يصبح الرأي فيهما مغايراً لما كان مألوفاً من قبل . فالمأمون العالم، نصير العلم، وأول خليفة من المفكرين الأحرار ممن عنوا عناية صادقة بالمسائل الدينية، سيكتشف لنا عن رجل لا يتسامح مع خصومه في الرأي، إلى الدرجة التي تجعل منه طاغية عسوفاً، يصطنع لمخالفيه صنوف الإيذاء والإطهاد".[2]

فهذا الوصف الدقيق للخليفة المأمون يكاد يتفرد به ولتر بايتون فكثير من المستشرقين يغضون الطرف عن مظالم أهل السنة في عصر المأمون والمعتصم والواثق، بل ويكيلون المدح والثناء للخليفة المتنور المأمون، وقليل منهم يتطرق لممارسات المأمون في السلبية في حق أهل السنة.

2. ويقول المستشرق جون جلوب : " لا يعرف قراء الإنجليزية عن هارون الرشيد شيئاً، سوى ما قرأوه عنه في كتاب ألف ليلة وليلة! حيث يبدو إنساناً يحب اللهو والحياة العابثة، ولا ريب أن هذا الانطباع الذي يحمله القارئ الإنجليزي عنه لا يتفق مع حقيقة هذا الرجل العظيم، ولا ما تميز به من حيوية وفاعلية"[3]

---

[1] ولتر باتون، أشهر آثاره دراسة المسند في الحديث لمالك، وأحمد بن حنبل وهي رسالته في الدكتوراة من هايدلبرج وكتاب الإرشاد الروحي في الإسلام. انظر المستشرقون للعقيق ص (996/3)

[2] أحمد بن حنبل، ولتر بايون، ص (41)

[3] إمبراطورية العرب، جون جلوب ص(540)

فمع إشارة جون جلوب لواقع القارئ الإنجليزي إلا أنه أضاف شهادة تتجاهلها روايات ألف ليلة وليلة، وهذا من الإنصاف الموضوعي والذي لم يستر مع الأسف من الكاتب والذي عرض بهارون الرشيد كما سأبينه في المطلب الثاني من هذا المبحث.

3. يقول جاك ريسلر: " ربما لم يحدث في التاريخ أن جمع بلاط ملكي مثلما جمع بلاط هارون الرشيد من كفاءات عقلية رفعة، فلم يكن الخليفة ذواقاً وفناناً فحسب، بل كان يجيد الحكم ويحمي حدوده ويقود جيشه في الحروب، ويقضي بالعدل. وهو على الرغم من تساهلاته ومن كرمه وحتى على الرغم من أعطياته التي لاتزال بلا نظير حتى اليوم، كان قد ترك في صناديق الخزينة عندما توفي وهو في الثانية والأربعين من عمره، ما ينوف عن ثمان وأربعون مليون دينار (نحو مائة مليار فرنك قديم)".[1]

فهذه الأمثلة الثلاثة الماضية تدل على لون ونمط هو الغالب في كتابات المستشرقين عن الخلفاء، وسبب اختياري لها لأنها عبارات حملت عبارات مدح تجاوزت مجرد النقل من كتب التاريخ الإسلامية وترجمتها، وهو ما قصدته أنه هو الغالب على كتابات المستشرقين، فغالبها نقل مجرد، وقليل ونادر منها ما يشابه الأمثلة السابقة من كيل المدح والثناء والإعجاب بشخصيات الخلفاء.

المطلب الثاني : الكتابات غير الموضوعية عن الخلفاء العباسيين.

أما التناول غير الموضوعي فيظهر جلياً في الشخصيات الكبرى من الخلفاء العباسيين، خصوصاً هارون الرشيد الذي كان له نصيب الأسد من تزييف وتشويه المستشرقين، والذي يستحق أن يكتب عنه وعن تناولهم له أطروحة علمية خاصة.

وسأعرض في هذا المطلب لأشهر شخصيات الخلفاء التي تعرضت للدراسة غير الموضوعية، على حسب ترتيبهم الزمني:

1. **الخليفة أبو العباس السفاح** مؤسس الدولة العباسية والذي قال عنه قال مؤرخ الإسلام الإمام ابن كثير رحمه الله عنه وعن تركته : " وترك تسع جباب وأربعة أقمصة وخمس سراويلات وأربع طيالسة وثلاثة مطارف خز "[2]

يقول عنه المستشرق روم لاندو :" حرص أبو العباس السفاح على الاستتار وعلى حجب معاصيه عن أعين الناس، وأيا ما كان فقد استمرت كؤوس الخلاعة والنفاق والفسوق دائرة

[1] الحضارة العربية، جاكريسلر، ص (77)
[2] البداية والنهاية، ابن كثير(300/13)

ضمن جدران القصر كعهدها من قبل"[1]، حين لم يجد روم لاندو ذكر لأي فسق يمارسه أبو العباس السفاح وصفه بانه يستر مجونه عن الناس!، ثم أخذ يصف المجتمع ككل بالمجون والفسق حتى يبين أن السفاح كان مثل المجتمع الذي يعيش فيه، بدون مستند تاريخي لما يقوله عن استتار أبو العباس السفاح بمعاصيه عن الناس.

2. **أما الخليفة العباسي هارون الرشيد** فقد ناله أكبر الحظ من التشويه والتلفيق من خلال منهجيتهم المتكررة في الاعتماد على كتب الأدب كالأغاني، وكتب القصص ككتاب ألف ليلة، وتجاهل كتب التراجم والتاريخ المسلمين ، فهذا المستشرق روم لاندو يتكلم عن عصر الرشيد فيقول : " لقد نزل العبيد والجواري بالمئات قصوراً فخمة، وأشبعوا كل نزوات الخليفة، ولقد كانت حياة البلاط غنية زاخرة بمشاهد رائعة صورت فيما بعد في حكايات ألف ليلة وليلة!"[2]، ويكفي في الرد على هذه الرواية ذكر مصدرها وهو كتاب ألف ليلة وليلة والذي لا يعرف له مؤلف وقد ملئ بالمجون والفسق وتشويه كل ما هو عربي أو إسلامي، فقد كتبت بيد شعوبية حاقدة، يعرفها أدنى مطلع على الكتاب.

ولا يكفي في الرد على المستشرقين معرفة مصادرهم المتهالكة، ولكن الاطلاع على متون كلامهم يجعلها أكثر سقوطاً ، ودونكم هذا النص المضحك والذي يقول فيه جاك ريسلر: " هارون الرشيد يحب الشراب في مجلسه الخاص ، وعنده سبع زوجات، ومائتي جارية، [3]، (وعنده سبع زوجات) ألا تكفي هذه الكلمة لمعرفة المستوى العلمي والمعرفي الذي ينتمي إليه المستشرق فيما يخص العالم الإسلامي، وكيف تغيب هذه البدهيات عن باحث في التاريخ الإسلامي، وهذا الغياب للبدهيات يبين عدم أهليتهم وقلة معرفتهم لواقع الحضارة الإسلامية ولثقافتها الدينية، وعند معرفة مثل هذه الأمثلة يتبين لنا القصور الكبير في التصور ، والذي سينتج عنه قصور أكبر في التحليل والتفسير والوصول إلى نتائج ستكون أكثر قصوراً وتشويهاً لما يقومون بدراسته.

ويقول جون جلوب عن الخليفة الرشيد بعد ما ذكر حجه وجهاده : " وقد يكون من العسير علينا أن نحكم الآن عما كان تدين الرشيد صادقاً وتدينه أصيلاً أو أن تقواه كانت لوناً من الدهاء السياسي"[4]

[1] الإسلام والعرب، روم لاندو (76)
[2] الإسلام والعرب، روم لاندو (80)
[3] الحضارة العربية، جاك رسيلر(144)
[4] إمبراطورية العرب، جون جلوب ص(545)

حتى في معرض ذكر عبادته وحجه وجهاده لا يترك المستشرق عبارة التشكيك، واتهام الرشيد بالرياء السياسي، والسؤال الذي يوجه للمستشرق وما الذي يدعو الرشيد أن يتظاهر بالتدين، فهو الخليفة وهو الآمر وهو الناهي، ومثله لا يراقب إلا الله، أما الناس فماهم إلا رعية يأتمرون بأمره وينتهون بنهية، ولكن المستشرق لم يتسق هذا الخبر مع ما اعتمده سابقاً في مصارده الخاصة ألف ليلة وليلة والأغاني فأحب أن يستصحب تلك المصادر في التشكيك في عبادة وجهاد وحج الخليفة الرشيد.

يقول المستشرق الروسي ى أ يلياييف : " وقد أصاب الخليفة هارون الرشيد من التمجيد والإكرام أكثر مما يستحقه!، أما ما اشتهر عنه من حلم وعدل فيعود إلى القصص التي تعرف بألف ليلة وليلة، فهذه القصص تصور الرشيد بأنه شخصية جذابة لا تتفق في ملامحها مع الشخصية التي نعرفه بها من خلال كتب التاريخ"[1]!، ومثل هذه العبارة قالها الباحثان ج. ود. سورديل عن هارون الرشيد فقد قالا: " ترتبط شهرته الأسطورية بالدور الذي أسند إليه في مجموعة قصص ألف ليلة وليلة!"[2] ، وكما يقولان في موضع آخر : " إن شخصية هارون الرشيد بطل الروايات الأدبية المجهولة العهود"[3] فهل وصل الحد به أن يجعل كتاب ألف وليلة [4]حاكماً على كتب التاريخ ، ويرد مرويات كتب التاريخ لأنها خالفت كتاب ألف ليلة وليلة، وهذا مثال آخر يبين أن المصادر التي يتكئ عليها المستشرقون هي أحد مشكلاتهم المنهجية في التعامل مع التاريخ الإسلامي.

ومثل ذلك ويقول المستشرق جوزيف بورلو عن هارون الرشيد : " كان هارون الرشيد من أشهر الخلفاء العباسيين، ويعود الفضل شهرته في شهرته إلى كتاب ألف ليلة وليلة" [5]

وأفضل رد نرد به على من قال أن سبب شهرة هارون الرشيد هي كتاب ألف ليلة وليلة هو ما ذكره المستشرق جون جلوب : " لا يعرف قراء الإنجليزية عن هارون الرشيد شيئاً، سوى ما قرأوه عنه في كتاب ألف ليلة وليلة! حيث يبدو إنساناً يحب اللهو والحياة العابثة، ولا ريب أن هذا الانطباع الذي يحمله القارئ الإنجليزي عنه لا يتفق مع حقيقة هذا الرجل العظيم، ولا ما تميز به من حيوية وفاعلية"[6]

[1] العرب والإسلام، ى أ يلياييف(266)
[2] معجم الإسلام التاريخي، ج.د سورديل(985)
[3] المرجع السابق(986)
[4] عند النظر لما كتبه المستشرقون ألف ليلة وليلة في دائرة المعارف الإسلامية وضخامة اهتمامهم بها، يتبين لنا سر جعلها مرجعيً تاريخياً حاكماً على كتب التاريخ، انظر دائرة المعارف الإسلامية(518/2)
[5] الحضارة الإسلامية،جوزيف بورلو(68)
[6] إمبراطورية العرب، جون جلوب ص(540)

ومن الهمز الذي لا ينقطع والتشكيك المستمر الذي يمارسه المستشرقون قول المستشرق جون جلوب: " وأدى الرشيد فريضة الحج في هذا العام جرياً على مألوف عادته، طيلة حياته، في أداء الفريضة مرة كل عامين أو ثلاثة، وقيل أنه مشى في هذه المرة نحواً من مائتين وخمسين ميلاً في الصحراء من المدينة إلى مكة، زيادة منه في الرغبة للتقرب إلى الله. ويبدو أن الخليفة لم يكن يشرب الخمر في هذه الفترة من حياته"[1]!

فقبل أن يختم موضوع عبادة هارون الرشيد نجده، يعرض بموضوع السكر والخمر، مع أن السياق بعيد عن ذلك، ولكنها نفوس شرقت بهذه الصفات التي يفتقدونها، والتي يعز نظيرها في ملوك أوربا .

وعند الاطلاع على مصادر التاريخ الأصلية لا نجد شيئاً مما يذكره من ينقل عن المصادر الشعوبية، فها هو الإمام ابن كثير رحمه الله يقول عن الرشيد: " وفيها حج بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد، وأعطى أهل الحرمين أموالا كثيرة جداً، ويقال: إنه غزا في هذه السنة أيضا. وفي ذلك يقول داود بن رزين الشاعر:

بهارون لاح النور في كل بلدة ..... وقام به في عدل سيرته النهج

إمام بذات الله أصبح شغله ... .وأكثر ما يعنى به الغزو والحج[2]

فحجه وغزواته مما تواتر ذكره في كتب المؤرخين، حتى تناقله الشعراء وصار مما يمدح به ويثنى عليه فيه، وكيف يتصور ممن يحج عاماً ويغزو عاماً أن يوصف بما وصف به الرشيد في كتب المستشرقين ومصادرهم.

3. **أما الخليفة المأمون** فكان على العكس من أبيه الرشيد، فقد نال نصيب الأسد من المدح والثناء، والوصف بالمفكر الحر!

يقول بروكلمان عن الخليفة المأمون: " وليس من شك أنه قدر للمأمون أن يخدم الثقافة الإسلامية خدمة جليلة خلال العشرين سنة من مقامه في بغداد، عن طريق اهتمامه الشخصي بعلوم اليونان"[3]، فجعل معيار الوصف بالخدمة الجليلة هو ترجمته لكتب اليونان، وهذا يبين الدوافع العقدية التي تجرد المستشرق عن الموضوعية في تناول الأحداث التاريخية.

---

[1] إمبراطورية العرب، جون جلوب ص(521)
[2] البداية والنهاية، ابن كثير(563/13)
[3] تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص (201)

يقول جاك ريسلر عن المأمون : " أحسن المأمون في تقبل ممثلي كل العقائد في الإمبراطورية ومن بينهم المفكرين الأحرار ، وأدخلهم جميعاً في مجلسه، فهو أديب متنور طور الآداب ورعاها مثلما رعى العلوم والفنون، ووفر لها الانتشار عبر العالم، وبتشجيع منه تم نقل الكتب اليونانية على نطاق واسع إلى العربية، كان الإسلام قد بلغ ذروته عندئذ".[1]

ويقول ستانوود كب عن المأمون : " وأوفد المأمون باعتباره راعياً متحمساً لتعليم المبعوثين في القسطنطينية البعيدة وأرمينية لاستحضارها إلى بغداد، وهكذا ترجمت وقت ذاك كنوز العلم الإغريقي إلى العربية، اللغة العالمية للإمبراطورية الإسلامية ".[2]

ويقول فيليب حتى في معرض ثنائه على حركة الترجمة في عصر المأمون : " ويجدر بنا أن نشير إلى أن العربي المسلم لم يكن له في الأصل ذلك التراث العظيم من العلم والفلسفة والأدب"[3]

وهذا الثناء المتزايد على الخليفة المأمون، ووصفه بالمفكر الحر، يرجع إلى سببين رئيسيين :

الأول: ترجمته لكتب اليونان والإغريق وقد صرح بها المستشرقون أثناء الثناء عليه.

الثاني: تقريبه لأصحاب المقولات المخالفة لأهل السنة، والمتأثرة بالثقافة اليونانية، كالمعتزلة، وبعض الزنادقة.

4. **أما الخليفة المتقي لله،** فيقول المستشرق عنه آدم ميتز : " ولم يشرب النبيذ ، وكان يتعبد ويصوم ، ولم يتخذ جلساء له، وكان يقول المصحف نديمي، ولا أريد جليساً غيره، ولكنه كان رجلاً لم يفارقه البؤس! فلم يزل فيه إلى أن مات"[4]، فاقتران القرآن والزهد بالبؤس والموت رسالة إيحائية غير مباشرة تساهم في تشويه شعب الإيمان وشعائر الإسلام، مع عدم وجود أي معلومة في الخبر الذي ساقه تفيد شيء عن حالة الخليفة المتقي لله النفسية.
5. **أما الخليفة المتوكل** فيكاد يكن الرجل الثاني من خلفاء بني العباس الذين نالهم التشويه والهمز واللمز، بسبب تقريبه لأهل السنة والحديث، وملاحقته للزنادقة، كما يقول عنه الإمام الذهبي رحمه الله : "استخلف المتوكل، فأظهر السنة، وتكلم بها في مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة، وبسط السنة، ونصر أهلها"[5]

[1] الحضارة العربية، جاك سيلر، ص(77)
[2] المسلمون في تاريخ الحضارة، ستانوود كب،ص (34)
[3] تاريخ العرب، فيليب حتى(374)
[4] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز،(38/1)
[5] سير أعلام النبلاء، الذهبي،ص (31/12)

ولذا قال المستشرقان ج. ود. سورديل عنه في معرض كلامهم عن ابنه المعتمد على الله : " الخليفة العباسي الخامس عشر المعتمد على الله حكم سنة 256هـ بعد الحقبة الصعبة التي تميزت بمقتل والده في سامراء، وبسبب التشدد السني الذي فرضه على سياسة الخلافة الدينية".[1]

كما يصف بروكلمان الخليفة العباسي المتوكل بأبشع الصفات إذ يقول : " وكانت هذه أقصى ما سمح به جشع المتوكل ومكره" ويقول " وكان على أهل الذمة الذين مثلوا دوراً عظيماً في بلاط أسلاف المتوكل، بوصفهم علماء وبوصفهم أطباء على الخصوص – والذين لم يكن في ميسور المتوكل الاستغناء عنهم بالكلية – أن يعانوا الاضطهاد في ظل هذا العهد البعيد عن التسامح"[2]

وهذه الخاتمة التي ختم بها بروكلمان تبين لنا السبب الحقيقي الذي جعل جملة من المستشرقين تكيل السب والانتقاص من الخليفة المتوكل، إذا فالبعد العقدي، والمنطلقات العقدية حاضرة عند المستشرقين في تقويم شخصيات الخلفاء، فيجعلون من هذا متنوراً مفكراً حراً حينما يقترب من النصارى والمتأثرين بالثقافة اليونانية والإغريقية، ويجعلون منه ماكر وجشع وفاسد حينما لا يكون كذلك.

[1] معجم الإسلام التاريخي ص (922)
[2] تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص (213)

المبحث الثالث : كتاباتهم عن العلماء في العصر العباسي .

من أهم كتابات المستشرقين عن الدولة العباسية ما كتبوه عن العلماء ، سواء كان ذلك في دائرة المعارف الإسلامية أو في بعض الدراسات المستقلة لبعض الشخصيات، أو ما تناولوه من خلال كتاباتهم عن الدراسات الإسلامية ومصادر التشريع، وكما في مبحث الخلفاء نجد غالب كتابات المستشرقين عن العلماء تكون نقل مجرد عن كتب التاريخ والتراجم والسير، والقليل يكون فيه تعليق شخصي، ويبرز هذا في الشخصيات المؤثرة، وعند أدنى نظر نجد أنهم حينها يستصحبون منهجيتهم المطردة في التعامل مع التاريخ الإسلامي، وقد مارسوها في عدة اتجاهات، وهي :

المطلب الأول: تسليطهم للأضواء على الشخصيات المنحرفة:

من الأساليب المتكررة عند المستشرقين في تعاملهم مع العلماء والمؤلفين، تسليطهم الضوء على أهل البدع والزنادقة وتضخيم دورهم في التاريخ الإسلامي وفي الحركة العلمية. فتجد لهم عناية خاصة بالشخصيات التي اتهمت بالزندقة، وعناية خاصة بالفرق الباطنية والصوفية الغالية، وعناية خاصة بالمهتمين بترجمة التراث اليوناني. وحيث أن استقصاء مقولاتهم في أهل الفرق والمقالات يطول، اقتصرت في هذا المبحث على كتاباتهم عن الشخصيات التي اتهمت بالزندقة، وكيف تعامل معهم المستشرقون وكيف قدموهم للقارئ؟ كنموذج من خلاله نعرف منهجيتهم في تقويم الرجال.

1. يقول المستشرق كراوس عن ابن الراوندي: " على أن هذ المذهب الأشعري كان أضيق من قدرات هذا الشاب الطموح ، ويقول أيضا : " ثم تأثر بالزنديق أبي عيسى الوراق فغدا مفكراً حراً[1]!.

من هو هذا الشاب الطموح، ومن هو هذا المفكر الحر ؟

يقول الإمام الذهبي عن ابن الراوندي: " الريوندي أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الملحد، عدو الدين، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الريوندي، صاحب التصانيف في الحط على الملة، وكان يلازم الرافضة والملاحدة، فإذا عوتب، قال: إنما أريد أن أعرف أقوالهم. ثم إنه كاشف، وناظر، وأبرز الشبه والشكوك، قال ابن الجوزي :كنت أسمع عنه بالعظائم،

[1] دائرة المعارف الإسلامية 285/1

حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب، قال ابن عقيل: عجبي كيف لم يقتل! وقد صنف (الدامغ) يدمغ به القرآن، و (الزمردة) يزري فيه على النبوات."![1]

ولهذا كان لابن الراوندي هذا الاحتفاء الكبير من المستشرقين حتى سمي بالشاب الطموح، والمفكر الحر!

إذا فالإلحاد والتشكيك في النبوات والقرآن هو سبب تسمية ابن الراوند بالشاب الطموح، واقترانه بالزنادقة ومصاحبتهم والتأثر بهم هو سبب تسميته بالمفكر الحر!

2. يقول المستشرق دومنيك سوريول عن ابن المقفع : "وهذه الفوضى ندد بها في أواسط القرن الثامن ابن المقفع، ذلك الكاتب الحر الأصيل"[2]

فمن هو ابن المقفع ومن هو الكاتب الحر الأصيل؟

يقول الذهبي رحمه الله في السير : " وروي عن المهدي، أنه قال: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع"، ويقول : " وكان ابن المقفع يتهم بالزندقة"[3]

مع أن قتل ابن المقفع له بواعث سياسية كما لمح لذلك الذهبي إلا أن اتهامه بالزندقة، وترجمته كتب الزنادقة كانت سبب إعجاب المستشرقين حتى سمي بالمفكر الحر الأصيل!

3. ومن ذلك وصفهم لمرحلة الزندقة التي كان يعيشها الشاعر أبو العتاهية بأنها فكراً حراً كما في دائرة المعارف الإسلامية : " وقد وصفه معاصروه بانه حر الفكر، لأنه أنكر البعث"[4]

4. ويقولون عن أبي العلاء المعري: " ولكن يجب أن نعترف أن أبا العلاء ظهر بمظهر المفكر الجريء الحر"[5]

وأبو العلاء المفكر الجريء كما يقال في الدائرة قال عنه الذهبي: " الشاعر، صاحب التصانيف السائرة، والمتهم في نحلته" وقال أيضاً : " وحصلت له شكوك لم يكن له نور يدفعها، فحصل له نوع انحلال دل عليه ما ينظمه ويلهج به، ويقال: تاب من ذلك وارعوى"[6]

5. أما مرجعهم في تقويم الرجال والعلماء والخلفاء فهو أبو الفرج الأصفهاني، وقد قالوا في دائرة المعارف الإسلامية عنه وعن كتابه : " فبالرغم من أن هذا الكتاب لم يلتزم فيه أبو

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص(59/14)
[2] الإسلام العقيدة السياسية، دومنيك سوريول (83)
[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص(209/6)
[4] دائرة المعارف الإسلامية(377/1)
[5] دائرة المعارف الإسلامية(382)
[6] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص (23/18)

الفرج نظاماً معيناً، فإنه لا يعتبر أهم مرجع في التاريخ الأدبي في القرن الثالث الهجري فحسب، بل يعتبر كذلك أهم مصدر لتاريخ الحضارة"[1]

فاعتبروا الأغاني أهم مصدر لتاريخ الحضارة الإسلامية، لما يصوره من مجون وفسق وانحلال للمجتمع المسلم، وأبو الفرج هذا قال عنه الذهبي في السير : " وكان وسخاً زرياً، وكانوا يتقون هجاءه"[2]

ونلاحظ هنا تكرر لفظة الفكر الحر في تراجم المأمون والراوندي وأبي العتاهية والمعري، ونجد نفس الوصف يتكرر حينما تذكر المعتزلة، ومن ذلك قول شاخت[3] منتقداً بعض المستشرقين في تسميتهم للمعتزلة بالأحرار : " من الواضح أنه من الخطأ اعتبار هؤلاء المفكرين المفكرين الأولين في الإسلام " مفكرين أحرار " (liberals) إذ لم يكونوا كذلك ، لأنهم عندما أصبحت السلطة تحت أيديهم ، ظهر منهم تشدد لا هوادة فيه، وأصروا على فرض معتقداتهم بالقوة . لكن سلطانهم كان مؤقتاً" [4]، وهذا يدل على أن وصفهم بالأحرار كان دارجاً بين أوساط المستشرقين.

ونجد أن هذا الوصف يتكرر حينما تذكر أي فرقة تعارض منهج أهل السنة والجماعة مهما كان مستوى هذه المعارضة.

كما نلاحظ المبالغة الشديدة في وصف كتاب الأغاني بأنه أهم مرجع في دراسة الحضارة الإسلامية، وهو لا يعدو أن يكون كتاب في الأدب، يفوقه في هذا المجال الكثير من الكتب، أما كتب التاريخ والتراجم والطبقات فلا يقارن بها في مستوى الموثوقية والأمانة.

المطلب الثاني: التشكيك فيما يذكر من محاسن أهل اعلم وفضائلهم ومواقفهم المشرفة:

من الأساليب المتكررة عند ذكر محاسن أهل العلم وفضائلهم، التعليق على هذه الفضائل بالتشكيك والانتقاص بأسلوب مباشر أو غير مباشر، أو بلغة التمريض، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

1. ومن ذلك قول بلسنر: " وهذا المجمل الذي ذكرناه عن سفيان هو كل ما نستطيع أن نقطع به في سيرته، غير أن كثيراً من السمات الأسطورية وجدت طريقها إلى قصة حياته"[5]

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية(389/1)

[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي(202/16)

[3] جوزيف شاخت ولد عام (1902)عمل في عدة جامعات أوربية وعربية وأنشأ مجلة الدراسات الإسلامية، واهتم بالفه الإسلامي فترجم كتب الحيل وغيرها.

[4] تراث الإسلام القسم الثاني،شاخت ص(204)

[5] دائرة المعارف الإسلامية 451/11

لم يذكر بعدها ماهي الصفات الأسطورية، وما مدى موثوقياتها ، وما يتبقى منها بعد ممارسة النقد العلمي الموضوعي لها، وإنما هي عبارة انتقاص لم يسندها إلى أي دليل، وسفيان الثوري هو من قال فيه الإمام الذهبي رحمه الله: " هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الثوري، الكوفي، المجتهد"[1]

2. يقول آدم ميتز معرضاً بأهل العلم عموماً، ووصفهم بالبطالة وعدم الاعتماد على النفس في طلب الرزق : " ويندر أن نجد في هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة"[2]، وعند الاطلاع لسير العلماء في كتب التراجم والسير لوجد مهنهم ولعرف استقلالهم بأرزاقهم عن الناس، ووجد تعففهم عما في أيدي غيرهم، ولو اطلع على أسماء بعضهم المنتهية بالنسبة لمهنة من المهن لوجد عدداً كبيراً من العلماء من نسب إلى مهنته ووظيفته.
3. يقول مرغوليوث[3] عن الإمام مالك في نقده لمحمد بن إسحاق : " لكن مالك بن أنس أطلق عليه لقب الدجال ، وربما كان سبب ذلك نقده لحديث مالك"[4]، فهو يعرض بالإمام مالك بأنه وصف ابن إسحاق بالدجال لغرض شخصي، وهو نقد ابن إسحاق لأحاديث الإمام مالك بن أنس.

إن ما يحدث بين مالك بن أنس وبعض معاصريه، هو ما يحدث في كل جيل بين الأقران من أهل العلم، ولكن تعليل حكم مالك على ابن اسحاق بأنه لغرض شخصي متجاهلين النقد الحديثي العلمي الموجه لابن اسحاق رحمه الله ومروياته في السير، فلا يذكر التدليس في كلام أهل العلم إلا ويذكر فيه تدليس ابن اسحاق، ومن ذلك قول الإمام الذهبي رحمه الله في السير في تفسيره لنقد مرويات ابن إسحاق: " وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء، لأشياء منها: تشيعه، ونسب إلى القدر، ويدلس في حديثه، فأما الصدق فليس بمدفوع عنه"[5].

ونلاحظ هنا تعليل الإمام الذهبي في نقد مرويات ابن اسحاق، وسبب عدم تحديث بعض أهل العلم عنه، وذكره لعدة أسباب تجاهلها المستشرق، ولم يذكر منها إلا تفسير يسئ لإمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رحمه الله.

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص(230/7)
[2] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز(347/1)
[3] ديفيد صموئيل مرجليوث ولد سنة 1858م بدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية ثم اهتم بدراسة اللغات السامية فتعلم العربية ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية توفي سنة 1940م.موسوعة المستشرقين للبدوي ص 379
[4] دراسات عن المؤرخين العرب،مرغوليوث ص(98)
[5] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص(39/7)

4. أما إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل فهو من الشخصيات التي كثر تشويههم لها، وكثرة كتابات المستشرقين حولها، سواءً في الموسوعات كدائرة المعارف أو كتب مستقلة، ، ولذا سأفصل القول في كتاباتهم عنه.

ويرجع سبب هذا الاهتمام بالإمام أحمد وبمحنته وكثرة هذا الكتابات حول هذين الموضوعين إلى عدة عوامل منها:

أ. مركزية الأمام أحمد عند أهل السنة، فهو أحد الإئمة الأربعة المتبوعين في الفقه الإسلامي، وهو شيخ مؤلفي الكتب الستة، ويعد من الأئمة الذين تلقتهم الأمة بالقبول.

ب. مركزية المحنة في سيرة الإمام أحمد بن حنبل، فهي تعتبر نقطة فاصلة في سيرته، بل عدها بعض أهل العلم أنها سبب انتشار مذهبه وكثرة أصحابه.

ت. كثرة تناول المستشرقين لمحنة الإمام أحمد حتى أن دائرة المعارف الإسلامية أفردتها بالذكر في باب محنة في النسخة غير المترجمة .

ث. كثرة تناول تلاميذ المستشرقين من العلمانيين العرب لأحداث الفتنة واعتمادهم على تفسيرات المستشرقين.

ج. ومن النقاط المهمة التي جعلت المستشرقين يولون الإمام أحمد والمحنة عناية خاصة هو موقفه من مقولة خلق القرآن، فالمستشرقون لمعوا صورة المعتزلة ووصفوهم بأصحاب الفكر الحر – كما مر – لقرب مقولتهم من ادعاء المستشرقين ببشرية القرآن، فالقول بخلق القرآن مع بعد مقولة المستشرقين عن مقولة خلق القرآن إلا أن المستشرقين استأنسوا به من خلال ذم من وقف ضد هذه المقولة، وتلميع من نصرها.

ومن خلال النظر في كلام المستشرقين عن الإمام أحمد نجد أنهم اتخذوا منهجيتين متباينتين في دراساتهم وتراجمهم له، منهجية منصفة وموضوعية، ومنهجية أخرى ظالمة وغير موضوعية في تعاملها مع الإمام أحمد رحمه الله، وسنعرض لهاتين المنهجيتين مع المثيل لهما في النقاط التالية:

- **أولاً: المنهجية الموضوعية :**

ومن أبرز من تناول شخصية الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى بموضوعية هو ما كتبه المستشرق ولتر بايتون في أواخر القرن التاسع عشر في رسالته المقدمة لنيل شهادة الدكتوراة، وكان عنوانها أحمد بن حنبل، يقول ولتر بايتون : "وليس من المستغرب أن الإمام أحمد بن حنبل، قد اعتبر فيما بعد المؤسس للمذهب الحنبلي، ولو أن ذلك لم يكن – فيما

أعلم– عن قصد منه أو إعداد من جانبه. غير أنه كان ولياً عظيماً، منافحاً عن السنة، اجتمعت فيه خلال الورع والتسنن والنضال. وهذه الحقيقة وحدها هي التي حملت تلاميذه والمعجبين به، على أن يفرغوا تعاليم أستاذهم بعد موته، في قوالب محدودة، هي قواعد ومبادئ، كما ضموا صفوفهم، وتساندوا فيما بينهم، كي يؤلفوا مدرسة فقهية. ولا أعتقد أن أحمد جال بذهنه أن شيئاً من هذا سيحدث بعد موته، أما وقد نشأ هذا المذهب الفقهي عفواً دون تدبير سابق، فإنا لنعده دليلاً على الأثر العميق الذي كان لشخصية هذا الرجل على عصره والعصور التالية له، فما حمده المسلمون له من المناقب التي ألهجت أسنتهم بالدعاء بالثناء عليه، سيرته الشخصية، وتعاليمه التي لا تحيد عن السنة قيد أنملة، واعتصامه بالسنة، على الرغم مما لاقاه في سبيل الذب عنها، والحفاظ عليها ".[1]

فهذا العرض الموضوعي يعتبر من أقدم ما كتب عن الإمام أحمد في الحقل الاستشراقي، ومع ذلك نجد أن غالب المسشرقين لم يحذو حذوة.

لكن ضعف الآلة العلمية في تناول الثقافة الإسلامية عن عند ولتر بايتون جعلته يخرج بنتائج غير دقيقه في تفسيره لبعض آراء الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ومن ذلك قوله عن عقيدة الإمام أحمد : " ومن الواضح أن هذا الاعتقاد نفسه، كان أصلاً من أصول القاعدة التي انبنى عليها إيمان أحمد بن حنبل بصفات التشبيه(فيما يبدو للمؤلف)[2] وهي الصفات التي وصفت بها الذات الإلهية في القرآن، ولما حيرته احتجاجات خصومه الفلسفسة، أقر بعجز عقله غير المدرب عن الرد على هذه الاعتراضات الفلسفية"[3]

فتفسير إثبات الصفات بالتشبيه ليس تفسيراً صحيحاً فالمشبهة هم من غلاة المثبتين للصفات، ومذهب الإمام أحمد هو اثبات الصفات بلا تشبيه، ولعل المؤلف اعتمد في هذا التصور على كتابات المعطلة من المعتزلة والأشاعرة والذين يصفون عقيدة السلف في باب الصفات بالتشبيه.

ومن الفهم الخاطئ في تفسير بعض اختيارات الإمام قول ولتر بايتون في موضع آخر : " وهذا المظهر الزاهد في خلق أحمد يشتمل على تقديس المخلفات" ثم استشهد على ذلك بما رواه أبو نعيم في الحلية : " ورأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فيضعها في فيه يقبلها، وأحسب أنه يضعها في عينيه ويغمسها في الماء ثم يشربه؛ يستشفي

[1] أحمد بن حنبل، ولتر باتون، ص(38)
[2] جملة تفسيرية اعتراضية من المترجم
[3] أحمد بن حنبل، ولتر بايتون(252)

بها، ورأيته أخذ قصعة النبي صلى الله عليه وسلم، فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها. ورأيته غير مرة، يشرب ماء زمزم بستشفي به ويمسح وجهه ويديه"[1]

فوصف الإمام أحمد بأنه يقدس المخلفات وصف لا يتطابق مع موضوع التبرك بجسد النبي صلى الله عليه وسلم، والذي يعتبر له خصوصية في موضوع التبرك، فالإمام أحمد لا يقدس كل مخلفات، وإنما معتقد أهل السنة والجماعة هو جواز التبرك بآثار النبي الحسية وما تبقى من جسده الشريف عليه الصلاة والسلام.

وبعد أكثر من مائة وثلاثين سنة تخرج دراسة أخرى هي في الحقيقة قريبة من مستوى دراسة بايتون في الجانب الموضوعي، هذا في الجملة، وهي دراسة المستشرق نيمرود هوريتز والتي طبعتها الشبكة العربية للأبحاث في عام 1435هـ ، ومما قاله نيمرود عن الإمام أحمد : "إن حياة ابن حنبل كانت هي اللحظة المؤذنة بولادة الحنبلية ، وكانت أفكاره ومثله هي الأساس لإطار الفكر الحنبلي، وعلى الرغم من أن الحنبلية لم تكن قد تطورت ونضجت تماماً في خلال حياته، وعدلت في أجيال لاحقة، فإنه هو الذي أرسى مبادئها، إذ أن عدداً كبيراً من الأفكار والمعايير السلوكية التي يعتنقها الحنابلة ويمارسونها يمكن إرجاعه إلى ابن حنبل نفسه، والأكثر بروزاً بين هذه القيم هي موقف الحنابلة من الناس الذين يعتبرونهم من المبتدعة، فإن مواجهتهم للمعتزلة والشيعة تعكس نقد ابن حنبل اللاذع لهاتين الفرقتين، كما أن الطبيعة المتعنتة لمقارباتهم تتقارب مع سلوكه أيام المحنة".[2]

فهذا التناول الموضوعي من الكاتبين في بعض ما كتباه يرجع لكونهما ألفا كتباً مستقلة عن الإمام أحمد، وإن كان الفارق الزمني بينهما أكثر من مائة سنة إلا أن كتاباتهما فيها شيء من التحليل والموضوعية في الجملة .

كما أن هناك الكثير من كتابات في المستشرقين والتي كانت عبارة عن نقل مجرد من كتب التراجم، لم أتطرق لها لكونها لا تحمل معاني إضافية يمكن مناقشتها سلباً أو إيجاباً على موضوع تعامل المستشرقين مع الإمام أحمد، إلا أنها تظل شاهداً على أن غالب كتابات المستشرقين غالب الشخصيات كانت ترجمة فقط .

- **ثانياً : المنهجية غير الموضوعية.**

[1] المرجع السابق(260)
[2] أحمد بن حنبل وتشكل المذهب الحنبلي،، نيمرود هوريتز(264)

التناول غير الموضوعي للشخصيات المؤثرة في المشهد السني تكاد تكون صفة مضطردة في غالب كتابات المستشرقين، كابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب، وغالب رموز المنهج السلفي السني، ونجد على نقيضها حينما يكون التعامل مع خصومهم من الفرق والجماعات الأخرى، وهذا يبين المنطلقات العقدية التي يتبناها المستشرقون، وسأعرض فيما يلي لبعض التشويه لسيرة الإمام أحمد ومذهبه من قبل بعض المستشرقين لتكون مثالاً على هذه المنهجية.

ومن ذلك الوصف بالتشدد والتحجر والتعنت والذي كرره الكثير من المستشرقين، ومنه قول بروكلمان عن الإمام أحمد : " بل إن تعصب أتباعه ظل أبداً يتهدد القانون والنظام في بغداد بأشد الخطر طوال عدة قرون تلت، حتى إذا كان العصر الحديث بعث مذهب أحمد بن حنبل على يد الحركة الوهابية في شبه جزيرة العرب، فكان في ذلك حافز قوي دفع بالإسلام إلى التحجر مع الأيام"[1]

ويتكرر نفس الوصف بالتشدد والتحجر في دائرة المعارف الإسلامية عن المذهب الحنبلي: " عانى المذهب الحنبلي أحياناً من شغب بين بعض أتباعه نشأ من تعصب قليل في النظرة، كما عانى من إسراف في الحرفية التزمها أتباع آخرون عن جهل وتحد، وقد تعرض في مراحل تاريخه لعدة معارضين أقوياء من أهل المذاهب الأخرى المختلفة، والذين تتعارض مبادئهم معه، فكان هؤلاء إذا أمسكوا عن تعمد الانتقاص منه، اتحدوا في مهاجمته أو أحاطوه بستار الشكوك الماكرة، ولم يحفل مستشرقوا الغرب به إلا قليلاً. ولم يكونوا في حكمهم بأقل من ذلك شدة، وقد أصبح الرأي المستقر هو أن مذهب أحمد بن حنبل فيه قول بوجود الله مع المغالاة العنيفة في الاستمساك بالتشبيه، وفيه سلفية ممعنة في المذهبية إلى حد لا يمكن أن يتيح لها البقاء، وروح التعصب مشتعل بالهياج العصبي، وافتقار أصيل إلى التواؤم الاجتماعي، وضرب من العجز المقيم لتقبل النظام المقرر"[2]

فتجد في آخر العبارة السابقة الوصف بالتشدد والتحجر والسلفية المذهبية الممنعة التي لا يمكن لها البقاء، وروح التعصب المشتعلة بالهياج العصبي، وافتقار إلى التوائم الاجتماعي، والوصف بالعجز المسيطر المقيم، صفات واتهامات كثيرة ومتوالية تفتقر إلى النظرة الموضوعية للإمام أحمد والمذهب الحنبلي

ومن المبالغة في وصف تشدد الحنابلة، ومناوئتهم لخصومهم قول مؤلفي دائرة المعارف الإسلامية عن أبي الحسن الأشعري رحمه الله : " بل لقد اضطر الأشعري نفسه عند تكوينه

[1] تاريخ الشعوب الإسلامية، الإمبراطورية الإسلامية وانحلال برزها (44)
[2] دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ص (376/2)

مذهبه أن يستند في مواضع عدة إلى مذهب أحمد بن حنبل، بغية اكتساب المسلمين إلى جانبه، وصرح أيضاً أنه تجنب كل ما يتعارض ومذهب هذا الإمام".[1]

يقول الإمام الذهبي عن شيخ الأشعري الجبائي : " ومات، فخلفه ابنه؛ العلامة أبو هاشم الجبائي. وأخذ عنه فن الكلام أيضا: أبو الحسن الأشعري، ثم خالفه، ونابذه، وتسنن"[2]

ويقول الذهبي في ترجمة الساجي شيخ أبي الحسن : " أخذ عنه: أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات، واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تآليف"[3].

فهاتان الشهادتان تنفيان أن سبب رجوع أبي الحسن الأشعري إلى مذهب الحنابلة في الصفات هو تسلطهم والخوف منهم، بل هي قناعات شخصية بسبب تركه لشيخه الجبائي وانتقاله لشيخ آخر هو الإمام الساجي رحمه الله.

ومن ذلك اتهام كتاب سيرة الإمام أحمد أنهم كتبوها بانتقائية، وأنها كتابات موجهة غير موضوعية، ومن ذلك قول نيمرود هوريتز : " ويمكننا قول الشيء نفسه عن صورة ابن حنبل التقي . فكتاب السيرة الذين أرادوا تقديمه كنموذج أو كمثل أعلى للأخلاق، كان بوسعهم أن يجمعوا قصصاً حقيقية عن عاداته في تناول الطعام، ويهملوا فيها ذكر الحالات التي تخلى فيها عن طعامه المتسم بالزهد، إن سياسة جمع وتحرير موجهة أيديولوجياً كهذه، قد نقلت صورة ذات جانب واحد عن ابن حنبل"[4]!

لو اتهمهم بالكذب أو بالمبالغة أو بأي شيء آخر لكان ذلك يستحق المناقشة والنظر وعرض الموضوع على طاولة البحث العلمي، أما أنه يتهمهم لما ذا لم يهملوا شيء وجدوه في سيرته ، ويجعل ذلك سبباً في وصف كتاباتهم بالتوجيه والأدلجة! فهذا شيء عجيب في مجال البحث العلمي والتحليل للدراسات التاريخية.

وهناك أخطاء علمية في تناول سيرة الإمام أحمد ومنهجيته العلمية، ففي دائرة المعارف الإسلامية عن الإمام أحمد بن حنبل : " وكان في بعض الأحيان يعتمد على أحاديث ضعيفة في تكوين أحكامه"[5]

وهذا الحكم غير صحيح، ولكن المشهور عند الإمام أحمد وغيره أنهم يقبلون الأحاديث خفيفة الضعف، إذا لم يكن في الباب غيرها، يقول ابن بدران في المدخل لدراسة مذهب الإمام

[1] دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ص (368/2)
[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص (183/14)
[3] سير أعلام النبلاء،الذهبي، ص(198/14)
[4] أحمد بن حنبل وتشكل المذهب الحنبلي، نيمرود هوريتز(31)
[5] دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، ص (367/2)

أحمد : " الأصل الرابع الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وهو الذي رجحه على القياس وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا في روايته متهم بحيث لا يسوغ الذهاب إليه فالعمل به بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحسن ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف بل إلى صحيح وضعيف وللضعيف عنده مراتب فإذا لم يجد في الباب أثرا يدفعه ولا قول صحابي ولا إجماع على خلافه كان العمل به عنده أولى من القياس"[1]

ومما اشتهر عن الإمام أحمد وعن الحنابلة بعدهم عن السلاطين، وتحاشيهم للبلاط، ومع ذلك يأتي من يحاول اضفاء جانب من الغموض محاولات الخليفة المتوكل تقريب الإمام أحمد وتردده، وإعراضه عن ذلك، حتى طلب الإعفاء من الخليفة لكراهته لمجاورة السلاطين، والأخذ من أموالهم ففي دائرة المعارف : " وأبدى أحمد تقارباً مع البلاط لأول مرة فلم يوفق!، وقد ظل تاريخ هذا التقارب غامضاً"[2]

وأكتفي بتعليق الشيخ بكر أبو زيد رحمه على هذه الفرية : " رفع الله المحنة عن الإمام أَحمد وعن المسلمين بولاية المتوكل وكان دفع له مالاً فلم يقبله، فألزمه به ففرقه بعد ما قبله وأجرى المتوكل على أَهله وولده، أَربعة آلاف في كل شهر حتى مات المتوكل، لكن الإمام أَحمد اعترض على ولديه: صالح، وعبد الله، وعمه، لأَنهم قبلوا مال الخليفة المتوكل، ويقول لهم: لِمَ تأخذونه، والثغور معطلة، والفيء غير مقسوم بين أَهله؟"[3]

أما من هو الإمام أحمد في ميزان أهل السنة فهذا ما يجيب عليه الإئمة العظام، كالمحدث ابن المديني الذي يقول مثنياً على الإمام أحمد ثباته: " إن الله أعز هذا الدين برجلين : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة"[4]

ويقول يحي بن معين مبيناً صعوبة الاقتداء بالإمام أحمد : " أراد الناس أن أكون مثل أحمد، ووالله لا أكون مثله أبداً"[5]

يقول أبو الوليد الطيالسي : " لما ضرب أحمد كنا بالبصرة، فسمعت أبا الوليد يقول : لو كان هذا في بني إسرائيل لكان أحدوثة"[6]

---

[1] المدخل، ابن بدران،ص(116/1)
[2] دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، ص (372/2)
[3] المدخل المفصل، بكر أبو زيد، ص(343/1)
[4] تاريخ بغداد،الخطيب البغدادي (98/6)
[5] الجرح والتعديل،ابن أبي حاتم (298/1)
[6] التاريخ الأوسط، البخاري (1110/4)

وأختم بكلام مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي في تعريفه بالإمام أحمد بن حنبل: " أحمد بن حنبل أبو عبد الله هو: الإمام حقا، وشيخ الإسلام صدقا، أبو عبد الله أحمد بن حنبل"[1]

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي،ص(177/11)

المبحث الرابع : كتاباتهم عن الجهود العلمية في العصر العباسي.

- **المطلب الأول : كتاباتهم عن العلوم الإسلامية.**

إن العصر العباسي يعتبر من العصور التي بلغت فيها العلوم الإسلامية ذروتها ونضجت فيها المؤلفات حتى بلغت مرحلة الإبداع. ، وقد قام المستشرقون بدراسات عديدة تناولت العلوم الإسلامية، ومحاولات عديدة كان مدارها التهوين من التراث الإسلامي ونسبته للأمم السابقة، وتوالت كتاباتهم الخلافة الراشدة وشنوا هجوماً عليها من خلال التشكيك في جمع القرآن وحفظه، وفي وتوالت كتاباتهم عن العلوم الإسلامية في العهد الأموي، وركزوا في تلك الكتابات على تدوين السنة والتشكيك في رجالاتها، ومنهجيات تعامل المحثين مع السند والمتن.

وسأعرض في هذا المطلب لأهم وأبرز كتاباتهم عن العلوم الإسلامية، وما يتعلق بالعصر العباسي على وجه الخصوص لكونه الإطار الزمني للبحث .

- **أولاً: كتاباتهم عن علم التفسير في العصر العباسي.**

يعتبر علم التفسير من أهم العلوم الإسلامية التي تناولته دراسات المستشرقين لعلاقته لمصدر التشريع الأول وهو القرآن، فسهام وأقلام المستشرقين تركزت على مصادر التشريع الكبرى لأن الطعن بها أو التشكيك بها هو طعن في الدين كله، ولن اتعرض في هذه النقطة لما كتبه المستشرقون عن جمع القرآن أو حفظه أو مصدره لكونها مادة تبحث في الإطار الزني للخلافة الراشدة، وهي خارج نطاق هذا البحث، ولكن سأعرض ما كتبه المستشرقون عن علم التفسير وكتب التفسير المؤلفة في العصر العباسي.

من أبرز كتب المستشرقين التي تناولت علم التفسير كتاب مذاهب التفسير لجولدزيهر[1]، وقد بث فيه الكثير من الشبه حول جميع مذاهب التفسير، وسنعرض لأبرزما طرحه جولدزيهر :

1. محاولته التشكيك في التفسير بالمأثور في قوله أن الصحابة كانوا يتمنعون من تفسير القرآن ، مثل عمر بن الخطاب، غيره من الصحابة والتابعين.[2]

ويرد على هذا التساؤل بأن الصحابة رضي الله عنه هم أكثر من فسر القرآن وكتب التفسير مليئة بمروياتهم، ومن كثرة مروياته صارت له مدارس تتناقل في التفسير كمدرسة ابن عباس ومدرسة ابن مسعود، أما ما نقل تمنع الصحابة عنه هو القول في كلام الله بلا علم ، ومن

[1] جولد تسيهر أو كولد صهر (1850-1921) هو مستشرق مجري، تعلم في بودابست وبرلين ولايبتسش، ورحل إلى سوريا عام1873م، فتعرف بالشيخ طاهر الجزائري وصحبه مدة، وانتقل إلى فلسطين فمصر فلازم علماء الأزهر، وعين أستاذاً في جامعت بودابست، وتفي فيها، وله مصنفات كثيرة بأكثر من لغة عن شتى العلوم الإسلامية، انظر (الأعلام: 1/84)

[2] مذاهب التفسير،جولد تسيهر(73) نقلاً عن كتاب آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره(703/2)

ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سئل عن كلمة في القرآن لا يعلم معناها فقال: " أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في القرآن ما لا أعلم".[1]

كذلك أن من ثبت عنهم التمنع عن التفسير في آيات من كلام الله، ثبت له مرويات أخرى في مواضع أخرى يبينون فيها معاني كلام الله سبحانه، وبذلك يبطل استشهاد المستشرق بتمنعهم في تلك المواضع.[2]

2. استند جولد تسيهر بقول الإمام أحمد رحمه الله : " ثلاثة لا أصل لها : التفسير ، والملاحم ، بوالمغازي"[3]

ولأهل العلم إجابات كثيرة حول ما نسب للإمام أحمد منها :

أ. قال بعضهم لا أصل لها لكون أكثر موادها من المراسيل .

ب. وقال بعضهم يقصد الغالب منها كذلك وإلا فقد صح منها الكثير.[4]

3. قوله : " الوضع الإسرائيليات في التفسير أفقده قيمته والثقة به"[5]

ويمكن الرد على هذه الشبهة من وجهين :

أ. أن الوضع موجود في كل الكتب المسندة، ومن أسند فقد برئ كما يقول أهل التاريخ، وقد تعامل معه المحدثون في باب الجرح والتعديل، ولازالت الجهود مستمرة في تحقيق كتب التفسير، والمنجزات تتراكم وكل يوم نبشر بتحقيق كتاب من كتب التفسير يبين صحة أسانيده وسلامة متونه من النقد.

ب. أن لأهل السنة منهجية معتمدة في التعامل مع الإسرائيليات، وهي أن لا تكذب ولا تصدق، مع جواز النقل والتحديث عنهم، ومنهجية أهل السنة في التعامل مع الإسرائيليات هي :

- قبول ما وافق القرآن.
- رد ما خالفه.
- التوقف بعدم التصديق والتكذيب فيما لم يرد في الكتاب والسنة ما يخالفه أو يوافقه.

والعمدة في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم" [6]، كما أن الكثير من هذه الإسرائيليات لا فائدة تعود على المكلفين في دينهم وإلا لبينه الله

[1] تفسير ابن جرير الطبري، ص(79/1)
[2] انظر آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره(704/2)
[3] مذاهب التفسير،جولد تسيهر(74)
[4] البرهان في علوم القرآن ، للزركشي، ص(156/2)
[5] مذاهب التفسير، جولدتسيهر(86)
[6] رواه البخاري(150/5)

في القرآن لأتباعه.[1]. وبهذا يزول إشكال جولدزيهر في تشكيكه في موثوقية كتب التفسير وقيمتها.

4. قوله : " التضاد والاختلاف في روايات التفسير بالمأثور يقلل قيمتها ويردها " [2]

ويكفي في نقض هذه الشبهة قول شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة التفسير : " الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد"[3]

ثانياً : كتاباتهم عن علم الحديث في العصر العباسي.

يستمد علم الحديث أهميته من كونه أحد مصادر التشريع الكبرى، وهو كالقرآن من ناحية محاولات المستشرقين في التشكيك في مرجعيته موثوقيته ورجالاته؛ من الصحابة والتابعين. وسأركز في هذا المبحث على كتابات المستشرقين عن كتب السنة المدونة في العصر العباسي، وسأتجاوز كتاباتهم عن السنة بعمومها أو بدايات التدوين، أو سهامهم الموجهة للصحابة أو للتابعين كالزهري، لكونها تدور في الحقبة الراشدية والحقبة الأموية وهما خارج الإطار الزمني للبحث.

وأكثر الشبه صلة بالعصر العباسي هي تلك الشبهة التي اتهم بها المستشرق الإيطالي علماء الجرح والتعديل، من أنهم لا يهتمون سوى بالأسانيد وانهم أهملوا ،وعجزوا عن إدراك علل المتون الحديثي.

يقول المستشرق الإيطالي الأمير كاتياني [4]في كتابه الحوليات الإسلامية : " كل قصد المحدثين ينحصر ويتركز في واد مجدب ممحل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه"[5] .

وهذا ظلم للجهود الكبرى التي بذلها المحدثون في دراسة المتن وبين علله الخفية، بل إن من شرط صحة الحديث السلامة من الشذوذ والعلة القادحة، وخير رد يرد به على كاتياني هي القواعد التي ذكرها ابن القيم في كتابه القيم المنار المنيف، والتي تبين الحديث الضعيف من متنه، يقول رحمه الله :

---

[1] آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ،عمر رضوان (709/2)

[2] مذاهب التفسير الإسلامي(102)

[3] مقدمة التفسير، ابن تيمية، ص 219)

[4] مستشرقي إيطالي، أبرز مؤلفاته حوليات الإسلام المكون من عشرة مجلدات تناولت تاريخ الإسلام .انظر موسوعة المستشرقين، للعقيقي.

[5] دائرة المعارف الإسلامية،(279/2)

" ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً :

1. فمنها اشتماله على أمثال هذه المجازفات التي لا يقول مثلها رسول الله صلى الله عليه و سلم وهي كثيرة جدا .
2. ومنها تكذيب الحس له .
3. ومنها سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه .
4. ومنها مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة مناقضة بينة فكل حديث يشتمل على فساد أو ظلم أو عيب أو مدح باطل أو ذم حق أو نحو ذلك فرسول الله صلى الله عليه و سلم منه بريء .
5. ومنها أن يكون الحديث باطلا في نفسه فيدل بطلانه على أنه ليس من كلام الرسول صلى الله عليه و سلم .
6. ومنها أن يكون الحديث لا يشبه كلام الأنبياء فضلا عن كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم الذي هو وحي يوحى .
7. ومنها أن يكون في الحديث تاريخ كذا وكذا .
8. ومنها أن يكون الحديث بوصف الأطباء والطرقية أشبه وأليق .
9. ومنها أحاديث العقل كلها كذب .
10. ومنها الأحاديث التي ذكر فيها الخضر وحياته وكلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد .
11. ومنها أن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه .
12. ومنها مخالفة الحديث لصريح القرآن .
13. ومنها أحاديث صلوات الأيام والليالي "[1]

فهذه العلل المتنية استقرأها ابن القيم في كتابه القيم المنار المنيف، وجمعها من كلام علماء الجرح والتعديل، ومثله صنع الشيخ بكر أبو زيد في كتابه القيم، التحديث فيما قيل فيه لا يصح فيه حديث، وهو كتاب يعالج العلل المتنية، وكلام أهل العلم المتفرق في كتب العلل والجرح والتعديل يدل دلالة كافية على براءة المحدثين من هذه التهمة.

ثالثاً : كتابتهم عن علم الفقه في العصر العباسي.

[1] اختصار من المنار المنيف لابن القيم(85)

من أبرز العلوم الإسلامية والتي ارتبطت بالعصر العباسي، لكونه مهد مرحلة التدوين فيها، فهو علم الفقه وهو بدوره تناولته سهام المستشرقين، علم، ونالت منه أقلامهم. من خلال ترديدهم للتهمة القديمة لكل ما هو إسلامي، وهو قولهم : أن الفقه الإسلامي مستمد من الأنظمة الإغريقية القديمة، والأديان السماوية السابقة، ومن ذلك قول روم لاندو: " وقد استمدت بعض الأحكام التي اشتملت عليها الشريعة من القوانين الطقسية اليهودية، في حين استمد بعضها من مصادر فارسية، ويونانية"[1]، ويقول فيليب حتى عن الفقه الإسلامي : " وليس من شك أن الفقه الإسلامي تأثر بالنظام اليوناني الروماني".[2]

ويقول في موضع آخر من كتابه : " على أن بعض المستشرقين يرون أثر الشرع الروماني لا في بعض الأحكام وحسب بل فيما هو أهم من ذلك في المبادئ والأساليب"[3]

حتى قال بعضهم: " إن الفقه هو قانون جوستنيان في لباس عربي" وقال آخرون إن : " إن الفقه ليس شيئاً آخر غير التلمود"[4]

وهذه الاتهام الفج يبين بطلانه عدة أمور :

1. الاختلاف الضخم في البنية التشريعية بين الدين الإسلامي وبين الحضارات التي اتهم الدين الإسلامي أنه مستمد منها، ووجود أحكام شرعية تفصيلية، ليست موجودة في هذه التشريعات، ككتاب الوصايا والفرائض وغيرها، مما يجعل من المضحك أن يتقبل أحد هذه الدعوى.
2. عدم وجود أدلة تدلل على هذه التهمة لتحولها من مجرد الدعوى إلى تهمة حقيقية تستحق النظر والدراسة.
3. أما دعوى التأثر بالقانون الروماني والذي كانت مدارسه منتشرة في كروما والقسطنطينية وبيروت والاسكندرية، وأن المسلمون استفادوا من هذه المدارس بعد الفتح الإسلامي، فهذه دعوى باطلة من الناحية التاريخية، فمدرسة بيروت دمرت وذهبت ملامحها في زلزال عام 551م أي قبل الفتح الإسلامي بمائة عام، ومدرسة الاسكندرية أبطلت روما العمل بها من عام 533 ق م ، والمسلمون دخلوا الإسكندرية عام 641م ، أي بعد إغلاق مدارسها وزوال تراثها بأكثر من ألف سنة، فكيف أتيح للمسلمين الاستفادة من هذا التراث المزعوم. أما مدرسة القسطنطينية، فلم يفتحها المسلمون إلا بعد نضج الفقه الإسلامي وتعدد مدارسه

[1] الإسلام والعرب روم لاندو(192)
[2] تاريخ العرب، فيليب حتى ،ص(468)
[3] المرجع السابق، ص(472)
[4] الاستشراق والفقه الإسلامي،الدسوقي(707)

وكتابة دواوينه في الخلافة العثمانية فكيف يدعى أن المسلمين دخلوها واستفادوا من الفقه فيها.[1]

المطلب الثاني : كتاباتهم عن العلوم الطبيعية :

تعتبر العلوم من أهم المجالات التي نالت الكثير من اهتمام علماء المسلمين، والتي حققوا فيها إنجازات عظيمة ورائدة أسهمت بدور كبير في تطور المعرفة الإنسانية، ونجد أن كتابات المستشرقين عن العلوم الطبيعية اتخذت مسارين متضادين، الأول منهج يعترف بجهود المسلمين ويبين أثرها على العالم الغربي، ونوع آخر يحاول ربطها بكل ما هو أوربي ويوناني أو لحضارات أخرى كالحضارة الهندية أو الصينية، محاولاً سلب هذه الأمة أي عنصر حضاري يحق لها أن تفاخر به .

- **المسار الأول: الاعتراف بالمنجزات العلمية لهذه الأمة :**

فعدد كبير من المؤرخين والباحثين الغربيين يعترفون بإسهامات العلماء المسلمين وإضافاتهم الجديدة في مجالات عديدة كالطب، والفلك، والرياضيات وغيرها، ويقرون بدورهم الريادي في وضع الأسس التي يقوم عليها العلم الحديث.

وما أبرز ما أنجزه العلماء المسلمون من اكتشافات في العلوم الطبيعية ما اكتشفوه في العصر العباسي والذي يعتبر من العصور الذهبية في الحضارة الإسلامية، إن لم يكن في الجانب العلمي هو رأس هرم هذه الحضارة ، فقد تميز هذا العصر بعلو حضاري وعلمي في جانب العلوم الطبيعية، وتنوع المؤلفات في العلوم الإنسانية، حتى أن من تناول هذا الموضوع من المنصفين من المستشرقين تجده يجل هذا العصر ويعترف بهذا الأثر العظيم للحضارة العلمية في العصر العباسي على العالم.

وهذا الاعتراف حاضر ومتكرر في عدة علوم كعلم الطب والذي بز في المسلمون العالم في تلك العصور وصارت كتبهم في الطب المرجع الأول حتى عصور متأخرة، ومن ذلك قول المستشرق ده بور : " أثر ابن سينا في الغرب في الجانب الطبي إلى القرن السابع عشر الميلادي"[2] ، وكذلك قول روم لاندو عن الطب عند المسلمين " إن لتفوق المسلمين على الإغريق منطويات أعمق بكثير من المنطويات ذات الصفة العلمية الخالصة، وهم في دراستهم وبحوثهم الطبية، لم يوسعوا آفاق الطب فحسب، بل وسعوا مفاهيم الإنسانية على وجه العموم"[3]،

[1] الاستشراق والفقه الإسلامي،الدسوق(710)
[2] دائرة المعارف الإسلامية (320/1)
[3] المرجع السابق(158)

وهذا يدل على أثر الدين الإسلامي الطب وطريقة تناول الأطباء المسلمين له، حتى تعدى ذلك المجال الطبي إلى المجال الإنساني العام.

ويقول كارا دي فو في كتابه التراث الإسلامي : " إن العرب هم ولا ريب واضعوا علم المثلثات، بنوعيه البسيط والمركب، إذ أن الإغريق لم يعرفوا هذا العلم"[1]

وتقول زغريد هونكه : " وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا منغلقة تجدف في وحل المؤسسات السلطوية، محرومة تماماً من الوقوف على قدمين ذاتيتين . تعالت في العالم العربي دائماً أبداً أصوات : (لا أستطيع أن أجاري أرسطوطاليس في هذه النقطة) ، (لقد لاحظت) ، (أنا نفسي قد رأيت) ، (لأننا رغم إجلالنا الكبير لجالينوس ، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق) إن النقد البناء لطبيب عبداللطيف المتواضع، الذي كان مدرساً في غالب العواصم في القرن (1126م) هو إقرار في نفس الوقت بالتجربة الذاتية"[2]

وتقول في موضع آخر: " (إن ما قاله جالينوس خطأ) صوت آخر من طبيب زميل في القاهرة. ابن النفيس المتوفى عام 1288م والذي اكتشف لأول مرة خطأ جالينوس حول دخول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة لأخرى"[3]

ويقول المستشرقان ديونيسيوس آجيوس ورتشارد هتشكوك : " وسيكون من المضجر– المتعب– أن نضع قائمة بكل المكونات والأفكار التي كانت معرفة في العالم الإسلامي قبل ظهورها في أوربا".[4]

ويقول روم لاندو : " ويقول في موضع آخر بين من خلاله الإضافة المميزة التي قدمها العلماء المسلمين : " والواقع أن الخطوة الرياضية الأولى من المفهوم الإغريقي السكوني للكون إلى المفهوم الإسلامي الدينامي له إنما قام بها قبل البيروني، العالم الرياضي الخوارزمي واضع علم الجبر الحديث".[5]

ويقول في موضع آخر عن تفوق المسلمين في علم النبات :" وإن أوربه لمدينة لهم بالمصدر الأول لأبرز المآثر التي حققت في علم النبات المبكر"[6]

---

[1] نقله جون جلوب ، في كتابه إمبراطورية العرب(623)
[2] أثر العقيدة والمعرفة الإسلامية في الحضارة الغربية، زغريد هونكة(120)
[3] المرجع السابق، ص(121)
[4] التأثير العربي في أوربا في العصور الوسطى، ديونيسيوس آجيوس، وريتشارد هيتشكوك، ص (47)
[5] المرجع السابق(251)
[6] المرجع السابق(277)

فهذه شهادات متعددة تبين منهجية الاعتراف بعلو كعب العصر العباسي في الجانب العلمي، وتشكل هذه المنهجية قدراً لا بأس به من نسبة المستشرقين الذين كتبوا عن المجالات العلمية والحضارية للأمة في العصر العباسي.

- **المسار الثاني : التقليل من الدور العلمي المستقل للعلماء المسلمين.**

المسار الثاني يمارس التقليل من أهمية الدور الذي لعبه علماء العصر العباسي في مجال العلوم الطبيعية والاكتشافات العلمية، ويمارسون التقليل من أهميتها، والتقليل في جانب السبق بنسبة كل ما اكتشفه المسلمون أنه من بقايا حضارات سابقة، أو أنه بسبب ترجمة كتب الإغريق واليونان في عهد الخليفة المأمون .

ومن ذلك قول المستشرق رسكا[1] عن ابن البيطار في تقييم مؤلفاته عن الأدوية : " جمعت من مؤلفات الأغارقة والعرب ومن تجاريب المؤلف الخاصة" [2]، فمع أنه ذكر التجارب الخاصة للعالم، ولكنه قدم مؤلفات الأغارقة على تجارب المؤلف الخاصة!، حتى ينفي صفة السبق والأولية لابن البيطار.

فتقديم الموروثات الإغريقية سنة مطردة عند المستشرقين حينما يتم الحديث عن العلوم النظرية كالرياضيات ، ومن ذلك قول روم لاندو :" وكشأنهم – العرب – في الفلسفة تعين عليهم أن يعتمدوا في المقام الأول على رصيد المكتشفات الموروثة عن الإغريق، ولكنهم ما يلبثوا أن وجدوا أن الرياضيات الإغريقية لا تلائم غرضهم، وعلى أيدي العرب دون غيرهم عرفت الرياضيات ذلك التحول الذي مكنها في آخر الأمر أن تصبح الأساس الذي قام عليه علم الرياضيات الغربي الحديث"[3]

ويشهد لذلك قول ستانوود كب :"وإلتقط المسلمون هذا العلم التطبيقي من الإسكندريين، ثم سلموه إلى أوربا باسمه العربي"[4]

وتجدهم يعظمون كل من اهتم بعلوم الإغريق كالفلاسفة العرب، كالفارابي وابن سينا وابن رشد ، ومن ذلك قول روم لاندو: " وطوال عدة قرون تالية درست أوربة فلسفة أرسطو من خلال عيني ابن رشد، واحتلت الرشدية مقام السيادة، في الجامعات الغربية الكبرى"، ويقول في

[1] رسكا(1867-1949) بدأ حياته معلماً في المرحلة الثانوية ثم تلقى اللغات الشرقية على يد برونوف وبتسولد وماركس الذي وجهه لدراسة العلوم الطبيعية عند العرب، وبحث في الكيمياء العربية وتطبيقات الرازي لها، واشتهر رسكا كباحثة ممتاز في العوم الطبيعية فولي معهد البحوث الطبيعية في برلينعام(1917م)من أبرز مؤلفاته الكيميائيون العرب. انظر المستشرقون للعقيقي ص (773/2)

[2] دائرة المعارف الإسلامية 227/1

[3] الإسلام والغرب، روم لاندو،(247)

[4] المسلمون في تاريخ الحضارة،ستانوود كب،(93)

موضع آخر: " أما أشهر رجال العرب " الغربيين" فابن رشد ، وهو مفكر نحن مدينون له بأكثر مما تظن الكثرة الكاثرة منا"[1]وهذا يدل على المكانة العالية التي احتلها العالم بن رشد عن الأوربين بسبب محافظة على تراث أرسطو، وشرحه له.

ويقول في موضع آخر: "ويدين علم الجبر بالكثير لعلماء الرياضيات الموهوبين في العصر الإسلامي، لأن اسم الجبر نفسه عربي، ويعني الربط بين شيء وآخر" ثم يقول : " وعلى الرغم من أن الجبر اغريقي الأصل إلا أن الرياضيين المسلمين قد توسعوا فيه"[2]

وقال أحد الباحثين في دائرة المعارف الإسلامية عن ابن وحشية: " ويقال أن كثيراً من تصانيفه، وخاصة كتابه المشهور الفلاحة النبطية منقول عن الكتب البابلية القديمة"[3]

ويقول ستانوود كب : " وأوفد المأمون باعتباره راعياً متحمساً لتعليم المبعوثين في القسطنطينية البعيدة وأرمينية لاستحضارها إلى بغداد، وهكذا ترجمت وقت ذاك كنوز العلم الإغريقي إلى العربية، اللغة العالمية للإمبراطورية الإسلامية، بعد أن مضى عليها زمن مطمورة تحت ركام ثقافة بيزنطة العقيمة علمياً والمتضخمة بالجدل اللاهوتي!

ولم يكن عملاً يسيراً أن يترجم العلم الإغريقي إلى العرب باصطلاحاتها الساذجة التي كرست نفسها من قبل للشعر والخطابة".[4]

ويقول فيليب حتى في معرض ثنائه على حركة الترجمة في عصر المأمون : " ويجدر بنا أن نشير إلى أن العربي المسلم لم يكن له في الأصل ذلك التراث العظيم من العلم والفلسفة والأدب"[5]

وهذه شهادات أخرى من نوع آخر تنسب كل سبق وكل تقدم للمسلمين في العصر العباسي إلى الأمم الأخرى، هي بعيدة عن الموضوعية، ويكفي في الرد عليها النظر إلى الشهادات الموضوعية التي سبقتها، ليتبين حجم التضاد بين وجهتي نظر المستشرقين، في كتاباتهم عن الناحية العلمية في العلوم الطبيعية في العصر العباسي.

[1] الإسلام والعرب، روم لاندو (230)
[2] المرجع السابق(99)
[3] دائرة المعارف الإسلامية،(300/1)
[4] المسلمون في تاريخ الحضارة، ستانوود كب،ص (34)
[5] تاريخ العرب، فيليب حتى(374)

الخاتمة والنتائج:

ويتبين لنا من خلال المباحث الأربعة الماضية - والتي عرض فيها كتابات المستشرقين عن الدولة العباسية ، في عدة مجالات ، مجال قيام الدولة العباسية ، ومجال الخلفاء، ومجال العلماء، ومجال الحركة العلمية والحضارية في الدولة العباسية – عدة نتائج مهمة تستحق النظر والتأمل وأن يخص كل منها ببحوث خاصة تسبر أغوارها وتبيت بواعثها ومآلاتها ، وهي :

1. أن التفسيرات التي اعتمدها المستشرقون في قيام الدولة العباسية بواعثها ومنطلقاتها هي مرجعياتهم الفكرية والآيدلوجية، والتي أثرت على تصورهم للتاريخ العباسي، والذي أدى بدوره إلى النتائج التي توصلوا إليها.
2. أن غالب المستشرقين فسروا قيام الدولة العباسية على نظرية الصراع الطبقي بين الأغنياء والفقراء، أو بين العرب والعجم، أو بين حديثي الدخول في الإسلام والسابقين، أو بين الفلاحين والملاك، أو بين العبيد والسادة!، ولم يركزا على البعد الحقيقي للثورة العباسية، وهو اقناع العباسيين أتباعهم بأحقيتهم في الخلافة مع ضعف الخلافة الأموية في أواخر خلفائها.
3. صور غالب المستشرقين الخلفاء العباسيين بأنهم أهل مجون وفسق، وأنهم ألعوبة في يد الفري أو الترك، والتعميم بهذه الصورة لا شد أنه تعميم ظالم، لا يتند إلى دليل مادي أو تفسير مقنع، وسببه الاعتماد على المصادر غير الأصلية لدراسة التاريخ الإسلامي، أو تعميم بعض الصور في أواخر الخلافة العباسية على جميع الخلفاء حتى في أدوار القوة .
4. ركز المستشرقون أضواءهم على أهل البدع من الصوفية ودعاة وحدة الوجود والمعتزلة، وحاولوا تصويرهم بأنهم هم دعاة الحرية والتنوير، وتصوير الجانب آخر من علماء أهل السنة أنهم رمز التخلف والجمود والتحجر .
5. غالب المستشرقين مجرد نقلة عن كتب التاريخ والتراجم، مع وجود من تظهر أديلوجيته الخاصة في تناول الشخصيات.
6. تهمة النقل من الحضارات السابقة تهمة تكاد تكون مطردة مع تباين المحتوى الإسلامي المستند إلى الوحي مع محتوى العلوم الإنسانية للحضارات السابقة لها
7. ركز المستشرقون ثناءهم على العلماء الذين اهتموا بالتراث اليوناني الفلسفي سواء كان من الفلاسفة أو ممن جمع بين علم الطبيعة والفلسفة، وأبرزوهم، مع محاول التقليل من شأن غيرهم من العلماء الذين نبغوا في الطب والبصريات وغيرها ونسبة تفوقهم وكشوفاتهم للحضارات السابقة بلا دليل .
8. هناك عدد قليل من المستشرقين يحاولون نقل الصورة الحقيقية للتاريخ الإسلامي، بموضوعية وتجرد ، ولكنهم قليل بالنسبة لغيرهم .

المراجع :

م	الكتاب
1.	ابن أبي حاتم الجرح والتعديل، لناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة: الأولى، 1271 هـ 1952م
2.	ابن القيم، المنار المنيف في معرفة الحديث الضعيف، تحقيق عزيز شمس، دار عالم الفوائد.
3.	ابن بدران، المدخل لمذهب أحمد بن حنبل، محقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة: الثانية، 1401ه
4.	ابن جرير، جامع البيان، حقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ط الأولى، 1422 هـ - 2001 م
5.	ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة، اتحاد الكتاب العرب، مصر1423ه ، تحقيق عبدالسلام هارون
6.	ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م
7.	آدم متز،الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، لجنة التأليف والترجمة، ط3، 1957م
8.	البخاري، التاريخ الأوسط، المحقق: محمود إبراهيم زايد دار الوعي , مكتبة دار التراث - حلب , القاهرة.الطبعة: الأولى، 1397 - 1977
9.	برنارد لويس، العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد،دار العلم للملايين،بيروت عام 1954م
10.	بكر بن عبدالله أبو زيد، المدخل المفصل لمذهب أحمد بن حنبل،عالم الفوائد
11.	ج. و د. سورديل، معجم الإسلام التاريخي، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، ط1، 2009م
12.	جوزيف بورلو،الحضارة لإسلامية، دار الكتاب العربي، 2001م
13.	جون باجوت جلوب، إمبراطورية العرب، دار الكتاب العربي، ط1، 1966م
14.	الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002 م
15.	ديونيسيوس آجيوس، التأثير العربي في أوربا الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط الأولى2000م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.
16.	الذهبي ، سير أعلام النبلاء، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، 1405 هـ / 1985 م
17.	روم لاندو، الإسلام والغرب، درا العلم للملايين، ط1، 1961م
18.	الزركشي، البرهان في علوم القرآن، محقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، 1376هـ - 1957 م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
19.	زغريد هونكة، آثر العقيدة والمعرفة الإسلامية في الحضارة الغربية، ترجمة عمر لطفي،دار قتيبة،ط الأولى عام2013م
20.	ستانوود كب، المسلمون في تاريخ الحضارة،الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1982م
21.	كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم،دار الحقيقة، بيروت
22.	نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة،1965م
23.	نيمرود هورويتز، أحمد بن حنبل وتشكل المذهب الحنبلي،ترجمة غسان علم الدين، مراجعة رضوان السيد، ط الشبكة العربية للأبحاث، ط الأولى عام 2011م .
24.	هاملتون جب ، دراسات في حضارة الإسلا، دار العلم للملايين،ط2، 1974م
25.	هوتسما ومجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية،دار الشعب
26.	ولتر باتون، أحمد بن حنبل، دار الهلال، ترجمة عبدالعزيز عبدالحق
27.	ى أ يلياييف، العرب والإسلام،الدار المتحدة للنشر،بيروت عام 1973م، ط1
28.	يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية،لجنة التأليف والترجمة،ط1968،2م
29.	يوليوس ولهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العش،الجامعة السورية،1956م

الفهرس:

الموضوع	الصفحة
المقدمة	2
التمهيد	4
المطلب الأول: تعريف الاستشراق	4
المطلب الثاني: مناهج المستشرقين في تناول التاريخ الإسلامي	6
المبحث الأول : كتابات المستشرقين عن قيام الدولة العباسية	7
المطلب الأول : عرض تفسيرات المستشرقين	7
المطلب الثاني: مناقشة تفسيرات المستشرقين	13
المبحث الثاني: كتابات المستشرقين عن شخصيات الخلفاء.	16
المطلب الأول: الكتابات الموضوعية	17
المطلب الثاني: الكتابات غير الموضوعية	20
المبحث الثالث : كتابات المستشرقين عن العلماء .	27
المطلب الأول : تسليط الضوء على شخصية منحرفة.	27
المطلب الثاني: التشكيك في محاسن أهل العلم ومواقفهم المشرفة.	30
المبحث الرابع: كتابات المستشرقين عن الحركة العلمية.	42
المطلب الأول: كتاباتهم عن العلوم الإسلامية.	42
المطلب الثاني: كتاباتهم عن العلوم الطبيعية.	50
الخاتمة	56
المراجع	58
الفهرس	61